الفداء وتبادل الأسرى بين المسلمين والبيزنطيين في العصرين الأموي والعباسي

د. منى سعد محمد الشاعر
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد - قسم التاريخ
كلية الدراسات الإنسانية - جامعة الأزهر

تقديم:

الفداء هو ما يقدم من مال ونحوه لتخليص المُفدى[1]، أي فداه أو فدى أو فداء، والجمع أفدية، أي استنقذه بمال أو غيره فخلصه مما كان فيه، قال تعالى:﴿ ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾[2]. ويطلق الفداء أيضًا على إجراءات تبادل الأسرى[3]؛ أي أنه يشمل الأسير وما يُفدى به، وكذلك إجراءات عملية الفداء، ومن هنا يلزم تعريف الأسير.

الأسير لغةً: كلمة مشتقّة من الإسار وهو القيد، ويطلق على الإنسان الذي يؤخذ ويُشدّ بالقيد؛ بينما يعرف الأسير في الاصطلاح: بأنه الرجل الذي يقع في الأسر أثناء القتال حيًا. والأصل أن يقع ذلك في أعقاب القتال الفعليّ، لكنه قد يحصل أيضاً أثناء وجود حالة الحرب وإن لم يكن هناك قتال فعلي[4].

والمتتبع لتاريخ الإنسانية الطويل يلاحظ أن الحروب لم تتوقف بين بني البشر، بغضّ النظر عن أسبابها ومدى أحقيتها- ويبدو أنها لن تتوقّف حتى يرث الله الأرض ومن عليها- وينتج عنها أن يأخذ كل من الطرفين أسرى من الطرف الآخر، قد يكونوا

١- مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز، القاهرة ١٩٩٢م، ص ٤٦٤.

٢- سورة الزمر، الآية ٤٧.

٣- نصرت عبد الرحمن: شعر الصراع مع الروم في ضوء التاريخ، عمان، الأردن ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص ١٤٨.

٤- الماوردي: الأحكام السلطانية، بيروت ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠٢ م، ص ٤١.

من المقاتلين أو النساء أو الأطفال. وقد اختلفت أحكام الأسرى بين أمّة وأخرى، وظل هذا سائدا لا يخضع لقوانين محكمة حتى بعث الله رسوله محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) فكان له في الأسرى أحكام محدّدة تنسجم مع طبيعة الرسالة التي حملها للنّاس.

وقد بيّن الماوردي أن أحكام الأسرى في الإسلام تتدرج في أربعة أمور، الأول: أن يقتلوا صبرا بضرب العنق، وهذه لم يلجأ إليها المسلمون إلا إذا كان الأسير من الذين اشتدوا في إيذائهم للرسول(صلى الله عليه وسلم) وإيذاء أهله وأصحابه، وكانوا خطرا على الدعوة الإسلامية، مثل النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، اللذين وقعا في الأسر بعد بدر، ولهذا أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقتلهما[١]؛ الثاني أن يسترقوا ويجري عليهم أحكام الرق من بيع أو عتق؛ الثالث: أن يفادى بهم على مال أوأسرى؛ الرابع: أن يمن عليهم ويُعفى عنهم[٢].

وكانت أول قضية للأسرى في ظل الدولة الإسلامية قضية أسرى بدر من المشركين، الذين كان عددهم يومئذ سبعين أسيرا. فلقد استشار الرسول (صلى الله عليه وسلم) أصحابه بعد أن أتم الله عليه النصر في غزوة بدر في أمر هؤلاء الأسرى فقال عمر بن الخطاب(رضي الله تعالى عنه): بضرب أعناقهم لأنهم رؤوس الكفر وأئمة الضلالة، ووافقه على ذلك جماعة من الصحابة؛ بينما قال أبو بكر الصديق (رضي الله تعالى عنه): أرى أن تستبقيهم، وتأخذ منهم الفداء فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم للإسلام فيكونوا لنا عضدا، ووافقه في الرأي جماعة من الصحابة(رضوان الله عليهم).

١- ابن عبد البر: الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق: شوقي ضيف، القاهرة ١٤٠٣ هـ، ص ١١٢، ١١٣؛

- وفيق الدقدوقي: الجندية في عهد الدولة الأموية، بيروت ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥م، ص ١٧٠ ، ١٧١ .

٢- الماوردي: الأحكام السلطانية ، ص ٥٠؛

- وفيق الدقدوقي: الجندية في عهد الدولة الأموية، ص١٧٠.

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أخذ برأي أبي بكر الصديق(رضي الله عنه) وقبل الفداء من الأسرى، وقال لأصحابه لايفلتن أحد من أسراكم إلا بفداء؛ فلما كان من الغد قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): فغدوت إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) وأبي بكر وهما يبكيان، فقلت يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد تباكيت لبكائكما؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، فقد عُرِض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة – شجرة قريبة[١]، وأنزل الله قوله تعالى:﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾[٢].

والكتاب الذي سبق من الله – كما يتضح من الآية الكريمة – هو قوله تعالى: ﴿ فإما مناً بعد وإما فداء﴾[٣]. ففي هذه الآية القرآنية نص صريح فيه الإذن بأخذ الفدية من الأسرى، ولذلك لم يعذبوا، وإنما نزل العتاب في أسرى بدر لأن المسلمين قد أسروهم قبل أن يثخنوا في الأرض، ثم إنهم قبلوا الفداء من أولئك المجرمين الذين لم يكونوا أسرى حرب فقط، بل كانوا من أكابر مجرمي الحرب ومن أشد المقاومين للدعوة الإسلامية، ولا يكون الحكم في الغالب إلا بالإعدام أو بالحبس حتى الموت[٤].

ولقد وضّح القرآن الكريم منهج الحرب والفداء في الإسلام في قوله تعالى ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق، فإما مناً

١- ابن الجوزي : تاريخ عمر بن الخطاب، القاهرة ، د.ت ص ٣٦؛
- محمد الطيب النجار: القول المبين في سيرة سيد المرسلين، الدار السعودية للنشر، جدة ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ص١٥٩، ١٦٠؛
- صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم، بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، بيروت ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١ م ، ص ٢٠٨.
٢- سورة الأنفال: الآيتان ٦٧، ٦٨.
٣- سورة محمد: شطر الآية ٤.
٤ – صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم، ص ٢٠٨.

بعد وإما فداء﴾[١]. فالآية الكريمة ترسم للمسلمين منهج الحرب، كيف تبدأ وكيف تنتهي؟ فهي تبدأ بضرب الرقاب، أي بالقتل الذي يراد به إضعاف العدو وإثخانه حتى إذا تم ذلك الإثخان بالقتلى والجراحات وظهر ضعف العدو، شرع هنالك الأسر، وهو ما عبر عنه القرآن بشد الوثاق، أذاً فلا أسر قبل الإثخان، فالآية الكريمة في سورة محمد موضحة ومفسرة لآيتي سورة الأنفال[٢]. وبعد أسر العدو المحارب يكون فيه أحد أمرين ذكرتهما آية سورة محمد، وهما المنّ والفداء، والمراد بالمنّ إطلاق الأسير دون مقابل لوجه الله لترغيبه وقومه في الإسلام؛ أما الفداء فهو أن يقبل المسلمون فدية الأسير لديهم بمال يدفعه، أو بأسير أو أكثر عندهم من المسلمين، وفي هذا وذاك مصلحة للمسلمين؛ فالمال قوة للمسلمين، وكذلك مفاداة أسرى الأعداء بأسرى مسلمين فيه تحرير لرقاب المسلمين من الأسر، بل أن المسلمين مأمورين بتخليص أسراهم وبفك عانيهم[٣].

ولا شك أن ما فعله الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع الأسرى بعد فتح مكة والذين كان عددهم خمسة عشر أسيرا، يوضح السياسة الإسلامية في العفو عن الأسرى؛ فقد عفا النبي (صلى الله عليه وسلم) عن أحد عشر منهم[٤]. كما يتضح ذلك أيضا من الرواية التي أوردها البخاري أن ثمامة بن أثال من بني حنيفة وقع أسيرا في أيدي المسلمين فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال:" أطلقوا ثمامة "، فانطلق إلى نخل قريب فاغتسل وأسلم[٥]، مما يدل على أن

١- سورة محمد: شطر الآية ٤.

٢- يوسف القرضاوي: أحكام الأسرى في الإسلام، الإسلام وقضايا العصر، إسلام أون لاين نت، ١٣/٥/٢٠٠٤م، ص١، الصفحة الرئيسية، الملف الشرعي.

٣- يوسف القرضاوي: أحكام الأسرى في الإسلام، ص ٢.

٤- وفيق الدقدوقي: الجندية في عهد الدولة الأموية، ص١٧٠ ، ١٧١.

٥- البخاري: صحيح البخاري، دار المنار، القاهرة ١٤٢٢هـ /٢٠٠١م، باب الاغتسال إن أسلم، وربط الأسير أيضا في المسجد، ص ١٧٧، ١٧٨.

سياسة العفو التي اتبعها الرسول (صلى الله عليه وسلم) كانت ناجعة، أذ تشجع الكثير من المشركين على الدخول في الإسلام.

ولقد اتبع المسلمون الأوائل سياسة الرسول في العفو ومعاملته للأسرى إذ أطلقوا – خاصة في عهد الخلفاء الراشدين- سراح من وقع في أيديهم من الأسرى، ولم يسترقوا إلا حماة المدن والحصون التي قاومت المسلمين مقاومة شديدة، أو ثارت عليهم بعد استسلامها[١].

وللعلماء أقوال كثيرة في وجوب تخليص أسرى المسلمين من أيدي الأعداء سواء بالبدن أو بالمال أو بتبادل الأسرى[٢]؛ ويجب على المسلمين أن يبذلوا كل ما يستطيعون من أجل فك أسراهم، وتحريرهم من الأسر، وتحكم الأعداء الكفار في رقابهم؛ فإذا كان الأمر يتطلب فداء بالأسرى من العدو، فليتبادلوا أسرى المسلمين بأسرى العدو. يقول عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): لأن استنقذ رجلا من المسلمين من أيدي الكفار، أحب إليّ من جزيرة العرب[٣].

ويهدف هذا البحث إلى إلقاء الضوء على الأفدية التي تمت خلال العصرين الأموي والعباسي، موضحا المفاوضات الدبلوماسية بين الطرفين بشأن الأسرى وإبراز

١- البلاذري: فتوح البلدان، تحقيق: رضـوان محمد رضوان ، بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣ م، صفحات متفرقة ؛

- وفيق الدقدوقي: المرجع السابق ، ص ١٧٠.

٢- انظر أقوال العلماء بالتفصيل:

- ابن أبي شيبة: الكتاب المصنف في الحديث والآثار، تحقيق: عامر العمري الأعظمي، بومباي، الهند د.ت.، ج ١٢، ص ٤١٨؛

- ابن قدامة: المغني، الرياض د. ت ،ج ٨، ص ٤٤٥، فصل: ويجب فداء الأسرى؛

- ابن النحاس: مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق، باب فكاك أسرى المسلمين وفدائهم، نقلا عن يوسف القرضاوي،أحكام الأسرى في الإسلام،إسلام أون لاين نت، ٥/١٣ / ٢٠٠٤م؛

- ابن تيمية: مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي الحنبلي، الرياض ١٣٨٣هـ، مجلد ٢٨- كتب الفقه- الجهاد- ج ٨ ، ص٦٢٥ – ٦٢٩.

٣- ابن أبي شيبة: الكتاب المصنف في الحديث والآثار، ج ١٢، ص ٤١٨ .

دور السفراء وعمال الثغور في تلك المفاوضات، هذا بالإضافة إلى توضيح إجراءات عمليات الفداء وتبادل الأسرى وأعدادهم، وجهات التمويل، وطريقة التبادل وما كان يصاحبها من الاحتفالات ابتهاجا بإتمام الأفدية، ومعاملة الروم البيزنطيين لأسرى المسلمين.

١- الفداء وتبادل الأسرى في العصر الأموي

لقد شهد العصر الأموي الكثير من المعارك والحروب بين المسلمين والبيزنطيين، ولم تقم الدولتان الأموية والبيزنطية ستارا يفصل كلا منهما عن الأخرى تمام الانفصال يجعلهم يعيشون عيشة انعزالية موحشة. فلقد استلزم جوار الدولتين استمرار الصدام والحروب بينهما مما أدى إلى ظهور نوع من الاتصالات الدبلوماسية المبكرة بين المسلمين والبيزنطيين وأصبح من الضرورة وجود سفراء بين الدولتين، كانت تهدف سفارتهم إلى حل المشاكل التي تطرأ بين الحين والآخر خدمة لما فيه مصلحتهما، أبرزها عقد الهدن، بالإضافة إلى التفاهم على إنهاء وضع خاص بأسرى الحرب، أو القيام بفداء وتبادل الأسرى، أو التدخل لإنهاء وضع يخل بأحوال تجّار ورعايا الدولتين(١).

وعلى الرغم من تعدد أغراض المهام التي أوفد من أجلها السفراء بين الدولتين الأموية والبيزنطية إلا أن أبرزها كان محاولة إنهاء حالات حرب، أو الإبقاء على فترات السلم أطول مدة ممكنة. أما ما يخص عملية الفداء وتبادل الأسرى في العصر الأموي فتشير بعض المراجع إلى أنه لم تقم سفارات كبرى بين الدولتين الأموية والبيزنطية لتبادل الأسرى رغم اتساع دائرة الحروب بينهم وما يتبع ذلك من ازدياد

١- إبراهيم أحمد العدوي: الأمويون والبيزنطيون- البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية- القاهرة، ١٩٥٣م، ص ٢٨٠،٢٨١؛

- رعد محمود البرهاوي: العيون والجواسيس في الدولة الإسلامية منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى نهاية العصر الأموي ، إربد ، الأردن ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥م، ص ٢٣٣؛

- علي محمد الصلابي: الدولة الأموية-عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، القاهرة ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ج ١، ص٣٧٣.

عدد الأسرى الذين يسقطون من الطرفين[1]، واقتصر الفداء على حالات فردية[2]؛ ولكن من خلال استقراء المصادر المعاصرة وجد أن هناك بعض الاتصالات الدبلوماسية بين الطرفين لإطلاق سراح بعض الأسرى.

ففي خلافة معاوية بن أبي سفيان (٤٠-٦٠ هـ /٦٦٠- ٦٨٠ م) وَقَعَ بعض المسلمين في أسر الروم، وقام قائد من قوادهم بلطم أحد الأسرى، فقال المسلم: وا إسلاماه أين أنت يا معاوية؟ فبلغ الأمر إلى معاوية فاجتهد في فدائهم حتى فك الله أسرهم، واحتال في خطف ذلك القائد الرومي؛ فلما اجتمع المسلم الذي كان أسيرا والقائد الرومي عند معاوية قال معاوية للمسلم: قم فالطمه كما لطمك ولا تزد، ثم أمر (رضي الله عنه) بإعادة الرومي إلى دياره، وقال له : قل لملكك تركت ملك المسلمين يقتص ممن هو على بساطك ومن خواصك[3].

وهناك أيضا رواية تدل على أنه حدث تبادل للأسرى في عهد معاوية، فيُذكر أن الإمبراطور البيزنطي أرسل إلى معاوية برجلين من جيشه يزعم أن أحدهما أقوى الروم والآخر أطول الروم وقال لمعاوية:" فانظر هل في قومك من يفوقهما في قوة هذا وطول هذا فإن كان في قومك من يفوقهما بعثت إليك من الأسارى كذا وكذا ومن التحف كذا وكذا وإن لم يكن في قومك من هو أقوى وأطول منهما فهادنّي ثلاث سنين فلما حضرا عند معاوية قال من لهذا القوي قالوا ما له إلا أحد رجلين إما محمد بن الحنفية أو عبد الله بن الزبير"، وتم اختيار محمد بن الحنفية للرومي القوي فتمكن منه محمد وهزمه؛ واختير قيس بن مسعد، فكان – كما قيل- أكثر طولا من الرومي،

١- إبراهيم العدوي: المرجع السابق ، ص ٢٨٣، ٢٨٤؛

- فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، القاهرة ١٩٦٦م، ج ٢، ص ٤١٥.

٢- إبراهيم أحمد العدوي: المرجع السابق، ص ٢٨٣ ، ٢٨٤؛

- فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية، ج ٢، ص ٤١٥.

٣-ابن رضوان: الشهب اللامعة في السياسة النافعة، تحقيق: سليمان الرفاعي، دار المدار الإسلامية، الطبعة الأولى، د.ت، ص ٤٨٩؛

- علي محمد الصلابي: الدولة الأموية، ج ١، ص٢٤١ .

واعترف الإمبراطور البيزنطي بالهزيمة وأرسل إلى معاوية ما كان وعده من إطلاق الأسرى والتحف والهدايا[1].

لاشك أن هذا يوضح أن هناك أفدية تمت في عهد معاوية، كما يوضح أحد الأساليب التي كان يتم بها الفداء في تلك الآونة من العصر الأموي، وهي الفترة التي كانت فيها الدولة الإسلامية تمثل مركز قوة وضغط على الدولة البيزنطية آنذاك.

ويشير الطبري إلى أحد الاتصالات الدبلوماسية ، فيذكر في حوادث عام ٩٠هـ/ ٧٠٩م على عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك(٨٦ – ٩٦هـ /٧٠٥ – ٧١٥م)، "وفيها أسرت الروم خالد بن كيسان صاحب البحر فذهبوا به إلى ملكهم فأهداه ملك الروم إلى الوليد بن عبد الملك"[2]؛ فمن خلال هذه الرواية يتضح أن هناك اتصالات دبلوماسية تمت بين الطرفين حتى يطلق البيزنطيون سراح بن كيسان، وهو من كبار رجال الدولة آنذاك.

ولقد كان للخليفة عمر بن عبد العزيز – رضي الله عنه (٩٩- ١٠١هـ / ٧١٧ – ٧٢٠م) أراء في الأسرى، حيث كان يرى ضرورة فك أسرى المسلمين مهما بلغ ذلك من المال؛ ويتضح ذلك من رسائله إلى عماله التي كان يؤكد فيها ضرورة فداء الأسرى؛ فقد رُوِىَ أن عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) كتب إلى بعض عماله" أن فادوا بأسارى المسلمين وإن أحاط ذلك بجميع ما لهم"[3]. كما رأى الخليفة عمر بن عبد العزيز(رضي الله عنه) أن الحرب في الجبهة البيزنطية تعد بلاء على المسلمين حيث

١- ابن كثير: البداية والنهاية، القاهرة ١٤١٤هـ، ج ٨، ص ٩٨؛

- عبد الرحمن محمد عبد الرحمن: الدبلوماسية الإسلامية، المنصورة، مصر، ٢٠٠٦ م، ص ٢١٨.

٢- الطبري: تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: نواف الجراح، بيروت ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٥ م، مجلد ٤، ص ١٢٨٧.

٣- ابن أبي شيبة: الكتاب المصنف في الحديث والآثار ، ج ١٢، ص ٤١٧؛

- الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، بيروت د.ت، ج٥، ص ٣١١، ٣١٢؛

- ابن الجوزي: سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد، تحقيق: نعيم زرزور، بيروت ١٤٠٤ هـ، ص ١٢٠.

تُهدر فيها الكثير من الدماء، لذلك استدعى الخليفة الفاتحين من آسيا الصغرى وعلى رأسهم قائد حرب الروم مسلمة بن عبد الملك[1] حيث أرسل إليه" يأمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين"[2]، كذلك أمر أهل طرندة[3] المسلمين بتركها إلى ملطية[4]" وأخلى طرندة خوفا على المسلمين من العدو، وأخرب طرندة"[5].

١- البلاذري: المصدر السابق ، ص ١٨٩ ، ١٩٠؛

- ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري، دار القلم، دمشق وبيروت،١٣٩٧ هـ/١٩٧٧م، ص ٣٢٠ ؛

- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، بيروت ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥م، ج ٥، ص ٤٣، وراجع:

- Diehl, C.: History of the Byzantine Empire, Trans. by George, P., New York, ١٩٤٥, pp.٥٨;

- Ostogrorowsky, G.: History of Byzantine State (Trans. Hussey), Oxford, ١٩٥٦, P. ١٣٩.

٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٥، ص ٤٣ .

٣- طرندة: من بلاد الروم على بعد ثلاثة مراحل من ملطية، كان عبد الله بن عبد الملك قد غزاها ثلاثة مرات، ثم فتحها سنة ثلاث وثمانين، وأسكنها المسلمين، انظر:

- البلاذري : المصدر السابق ، ص ١٨٩؛

- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٥، ص ٥٤.

٤- ملطية: مدينة كبيرة من أكبر مدن الثغور وأكثرها سلاحا وأجلدها رجالا،وهي بلد عامر كثير الخير والأرزاق،غير أن الروم تغلبوا عليها مرات فغيروا محاسنها وسلبوا نعمها انظر:

- الإدريسي: كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، القاهرة ١٩١٤هـ/١٩٩٤م، المجلد الثاني، ص ٦٥٠، ٦٥١؛

- ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، ليدن ، مطبعة بريل ١٩٣٨م، ق ١، ص ١٨١؛

- ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧م، مجلد ٤، ج ٨، ص ٣١٥، ٣١٦؛

- ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، القاهرة ١٢٧٦هـ، ص ٤٣؛

- ابن الشحنة: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تقديم: عبد الله محمد الدرويش، دمشق ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص ١٩٥.

٥- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٥، ص ٥٤.

كما قامت في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز(رضي الله عنه) أول عملية فداء منظمة وكبيرة بين المسلمين والبيزنطيين، تم فيها تبادل الأسرى مع الروم البيزنطيين، حيث فودي فيها الأسير المسلم مقابل عشرة من أسرى البيزنطيين[١].

ولاشك أن هذه الروايات تدل على أن عدد أسرى الروم كان كثيرا، تؤكد على مدى مكانة الأسير المسلم لدى الخليفة عمر بن عبد العزيز(رضي الله عنه) الذي كان يشغله بالدرجة الأولى أن يعود أسرى المسلمين إلى بلادهم؛ يؤكد هذا أيضا ما رواه ابن عبد الحكم عن بكر بن خنيس أنه قال: أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الأسرى المسلمين بالقسطنطينية يقول: "أما بعد، فإنكم تعدون أنفسكم أسارى- ومعاذ الله- بل أنتم الحبساء في سبيل الله، واعلموا أني لست أقسم شيئا بين رعيتي، إلا خصصت أهليكم بأوفر نصيب وأطيبه، وأني قد بعثت إليكم بخمسة دنانير خمسة دنانير ولولا أني خشيت إن زدتكم أن يحبسه طاغية الروم عنكم لزدتكم، وقد بعثت إليكم فلان بن فلان يفادي صغيركم وكبيركم، وذكركم وأنثاكم، وحُرّكم ومملوككم، بما سُئل به فابشروا ثم أبشروا، والسلام عليكم"[٢]؛ وما ورد في رواية ابن خياط من اهتمام عمر بن عبد العزيز(رضي الله عنه) بالأسرى إذ حمل " الطعام والدواب إلى مسلمة بن عبد الملك إلى بلاد الروم، وأمر من كان له هناك حميم أن يبعث معه بعثا، فأغاث الناس، وأذن لهم في القفول"[٣].

١-ابن سعد: الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس، بيروت ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٨ م ،ج ٥، ص ٣٥٣ ، ٣٥٤؛

- عبد المنعم ماجد: العصر العباسي الأول، القاهرة ١٩٧٩م، ص ١٤٧؛
- يوسف العش: الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنة عثمان، دمشق ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص ٢٦٤؛
- محمد بن سعد بن شقير: فقه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، الرياض ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م، ص ٤٣٣ .

٢- ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه مالك بن أنس وأصحابه، تحقيق: أحمد عبيد، مطبعة وهبة، القاهرة، ١٣٧٣ ص ١٤٠.

٣- ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ٣٢٠.

وروى سعيد بن منصور في سننه (٢٨٢٢) عن ابن عياش، عن عبد الرحمن بن أنعم[١] (وفيه ضعف) عن المغيرة بن سلمة، عن عبد الرحمن بن أبى عمرة قال: (لما بعثه عمر بن عبد العزيز بفداء أسارى المسلمين من القسطنطينية قلت له أرأيت يا أمير المؤمنين إن أبَوّا أن يفادوا الرجل بالرجل كيف أصنع؟ قال: عمر زدهم، قلت إن أبَوّا أن يعطوا الرجل بالاثنين؟ قال فأعطهم ثلاثا، قلت فإن أبَوّا إلا أربعا؟ قال: فأعطهم لكل مسلم ما سألوك فو الله لرجل من المسلمين أحبُّ إليّ من كل مشرك عندي! إنك ما فديت به المسلم فقد ظفرت، إنك إنما تشترى الإسلام...)؛ ثم قال مبعوث الخليفة عمر في فداء الأسرى، فصالحت عظيم الروم على كل رجل من المسلمين رجلين من الروم[٢]. وتوضح هذه الرواية، بل تؤكد خطة عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه)، والذي ترك من أجلها حرب الثغور آنذاك مع البيزنطيين، التي كانت تهدف إلى فكاك أسرى المسلمين مهما بلغت تلك المبادلة سواء فداء الأسير المسلم بأسير أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة بل وحتى عشرة من البيزنطيين، المهم أن يعود هؤلاء المسلمين إلى أرضهم وأهليهم.

ويؤكد ذلك المعنى أيضا ما ذكره ابن عبد الحكم على لسان أحد المسلمين في عهد عمر بن عبد العزيز أنه قال:" دخلت القسطنطينية تاجرًا في عهد عمر بن عبد العزيز فأخذت أطوف في بعض سككها، حتى انتهى بيّ المطاف إلى فناء واسع.... رأيت فيه رجلاً أعمى، يدير الرحى وهو يقرأ القرآن...! فعجبت وقلت في نفسي: في القسطنطينية رجل أعمى يتكلم العربية، ويدير الرحى، ويقرأ القرآن.. إن له لنبأ....! فدنوت منه، وسلمت عليه بالعربية ـ فرد السلام.. فقلت: من أنت يرحمك الله، وما

١- عبد الرحمن بن نعيم: أسند إليه عمر بن عبد العزيز ولاية إقليم خراسان في عام ١٠٠ هـ /٧١٩م، انظر :

- الطبري: المصدر السابق، مجلد ٤، ص١٣٣٣؛

- ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، تحقيق: صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، عمان- الأردن، د.ت، ص ٦٣٩ .

٢- سعيد بن منصور: سنن سعيد بن منصور، الحديث رقم(٢٨٢٢).

نبؤك؟ فقال: أسير من المسلمين .... أسرني هذا الرومي، وعاد بي إلى بلاده ففقأ عيني، وجعلني هكذا أدير الرحى، حتى يأتي أمر الله .... فسألته عن اسمه، وبلده، وقبيلته، ونسبه.... وما كان لي من عمل حين عدت قبل أن طرقت باب أمير المؤمنين وأخبرته الخبر.... فاحتقن وجهه، واحتدم غضبًا، ودعا بدواة، وكتب لملك الروم: قد بلغني من الآن كذا وكذا.... وأنكم بذلك قد نقضتم ما بيننا وبينكم من عهد" أن تسلموا كل أسير من المسلمين".... فو الله الذي لا إله إلا هو، لئن لم ترسل إليَّ بهذا الأسير، لأبعثن إليك بجنود يكون أولها عندك وآخرها عندي.... ودعا برسول، فسلمه الكتاب، وأمره ألا يضيّع وقتًا في غير ضرورة حتى يصل؛ ودخل الرسول على ملك الروم، وسلمه الكتاب .... فأصفر وجهه، وأقسم أنه ما علم من أمر هذا الأسير شيئاً، وقال: لا نكلف الرجل الصالح عناء الحرب، ولكنا نبعث له بأسيره معززًا مكرماً، وقد كان [1].ولاشك أن هذه الروايات تؤكد حرص الخليفة على فداء كل أسير مسلم في أرض الروم، وأن الهدنة التي عقدها مع الروم كانت من أجل إطلاق أسرى المسلمين؛ كما يتضح منها أيضا أنه لم يحدث فداء واحد في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه)، بل يبدو أنه قد حدث في عهده عدة أفدية، منها ما كان لإطلاق مئات من الأسرى، أو بعضها لإطلاق عشرات منهم، بل حتى حدث فداء لإطلاق أسير واحد فقط ، كما هو واضح رواية ابن عبد الحكم.

٢- الفداء وتبادل الأسرى في العصر العباسي

لقد حفل العصر العباسي بالكثير من عمليات الفداء وتبادل الأسرى بين المسلمين والبيزنطيين بصورة أوضح مما كان عليه الحال في العصر الأموي؛ وقد حدث أول فداء في عام ١٣٩ هـ/ ٧٥٧م[2] على عهد الخليفة أبي جعفر المنصور(١٣٦- ١٥٨هـ /٧٥٤- ٧٧٥م) عقب استيلاء الإمبراطور البيزنطي

١- ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ١٤٣، ١٤٤.

٢- الطبري: المصدر السابق، حوادث ١٣٩، مجلد ٤، ص ١٥٥٦.

قسطنطين الخامس (١٢٣- ١٥٩هـ/٧٤٠ -٧٧٥ م)[١] على مدينة ملطية في عام ١٣٨هـ / ٧٥٥م، والتي كانت من أحصن ثغور المسلمين، مما جعل بقية ثغور الجزيرة مكشوفة أمام الروم فتمكن قسطنطين الخامس من الاستيلاء على عدة ثغور منها ثغر كماخ[٢] الذي استولى عليه في نفس العام[٣]، لذلك أصبح هم الخليفة أبو جعفر المنصور استعادة ملطية، فأرسل أخاه العباس بن محمد الذي استطاع استردادها من البيزنطيين في نفس العام، وقام الخليفة بإعادة بنائها وتحصينها من جديد[٤]. وبذلك لم تؤد تلك الأعمال إلى مكاسب إقليمية بالنسبة للبيزنطيين بسبب نجاح المسلمين في إعادة ما استولى عليه البيزنطيون[٥]؛ ثم عمد أبو جعفر المنصور إلى عدة إجراءات أخرى

١- صادفت السنوات الأولى من حكم قسطنطين الخامس أن انتشرت الفتن في الدولة الأموية ، ثم أعقب ذلك سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية التي نقلت حاضرتها إلى العراق فانتقل بذلك مركز الثقل من الشام إلى العراق مما خفف الضغط على الدولة البيزنطية وبدأت تخرج من سياسة الدفاع التي أجبرتها عليها الدولة الأموية في قوتها إلى سياسة الهجوم منذ أواخر العصر الأموي وبداية العصر العباسي ، انظر :

- محمد مرسي الشيخ: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، الإسكندرية ١٩٩٤م، ص ١٣٣؛

-Ostogrorowsky, G.: History of Byzantine State, P. ١٤٩.

٢- كماخ: أو كمخ مدينة حصينة من مدن الثغور حسنة المطلع بها الكثير من المتاجر والصناعات ،انظر:

- الإدريسي: المصدر السابق ، المجلد الثاني ، ص ٨١٢ ، ٨١٣ .

٣- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، ج ٥، ص ٤٨٦؛

- ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٧١١؛

- عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ص ١٤٥؛

-Ostogrorowsky, G.: History of Byzantine State, P. ١٤٩.

٤-البلاذري: المصدر السابق، ص ١٩٠، ١٩١؛

- ابن خياط: المصدر السابق، ص ٤١٨؛

- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، ج ٥، ص ٤٨٨ ، ج ٦، ص ٤٨؛

-Ostogrorowsky, G.: History of Byzantine State, ١٩٦١, P. ١٤٩.

٥- السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية ٣٢٣ - ١٠٨١ م، دار النهضة العربية ، بيروت، د.ت،القاهرة ١٩٦٥م، ص ٢١١؛

- محمد مرسي الشيخ: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٣٣؛

- Ostogrorowsky, G.: History of Byzantine State, P. ١٤٩.

من أجل التصدي لأي هجوم من قبل البيزنطيين على الثغور الإسلامية، لذلك سعى إلى إحكام الرباط وملازمة ثغر العدو، وجعل باب الجهاد في تلك الجبهة مفتوحا أمام العرب والموالي؛ كما منح الفرصة للجند المرتزقة للجهاد في تلك الجبهة فأرسل إليها عددا كبيرا من أهل خرسان[١].

ومن تلك الإجراءات رأى أبو جعفر المنصور أن يفتح بابا لفداء الأسرى المسلمين في عام ١٣٩هـ /٧٥٦م[٢] إذ " فادى المنصور بمن كان حيا من أسارى أهل قاليقلا[٣] وبنى قاليقالا وعمرها ورد من فادى به إليها وندب إليها جندا من أهل الجزيرة وغيرهم"[٤]؛ ولم يكن ذلك الفداء قاصرا على أهل قاليقالا كما ذكر البلاذري، بل شمل معظم أسرى المسلمين في أرض الروم [٥]. ويشبه ذلك الفداء في شروطه الفداء الذي حدث في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز (رضي الله) عنه حيث اتبع فيه

١- عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ص ١٤٥.

٢- الطبري: المصدر السابق، حوادث ١٣٩، مجلد ٤، ص١٥٥٦؛

- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٥، ٤٨٨ ؛

- ابن خلدون المصدر السابق ، ص ٧١١ .

٣- قاليقلا: مدينة بأرمينية العظمى من نواحي خلاط، أصبحت فيما بعد من نواحي ملاذ كرد، أطلق عليها هذا الاسم نسبة إلى امرأة ملكت أرمينية كانت تسمى قالي، فبنيت هذه المدينة وأطلقت عليها قالي قاله، يعني إحسان قالي، ثم صورت نفسها على أحد أبوابها، فعربتها العرب إلى قاليقلا عرفت فيما بعد بأرزن الروم، وحديثا أرضروم، ويطلق عليها الأرمن اسم كرين، انظر:

- ياقوت الحموي: المصدر السابق، مجلد ٤، ج٧، ص ١٣؛

- ابن عبد الحق البغدادي: مراصد الإطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع ، تحقيق: علي محمد البجاوي، القاهرة ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م ، ج٣، ص ١٠٥٩؛

- دائرة المعارف الإسلامية: أصدرها بالإنجليزية والفرنسية والألمانية كبار المستشرقين في العالم تحت إشراف الاتحاد الدولي للمجامع العلمية، ترجمة: إبراهيم زكي خورشيد وأحمد الشنتناوي وعبد الحميد يونس،القاهرة ١٩٣٣م، المجلد الثالث، ص ٣٩.

٤- البلاذري: المصدر السابق، ص ٢٠٢.

٥- ابن الأثير:المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٨٨؛

- ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٧١١.

أبو جعفر المنصور خطة عمر بن عبد العزيز في الفداء، فقد كان يفادي الرجل من المسلمين بعشرة من البيزنطيين [١].

وبذلك الفداء استنقذ المنصور أسراه من البيزنطيين وعادت مدن الثغور إلى الازدهار والانتعاش من جديد بعودة الأسرى إلى أماكنهم في الثغور، هذا فضلا عن الإجراءات التي اتخذها من أجل تأمين البلاد من أي هجوم من قبل البيزنطيين.

ولا شك أن أبا جعفر المنصور لجأ إلى ذلك الفداء لتصفية الوضع على الحدود البيزنطية مؤقتا، وحتى يتفرغ لمعالجة مشاكله الداخلية ممثلة في فتن العلويين من بني عبد الله بن الحسن بن علي، وهي الفتنة المعروفة بفتنة محمد بن عبد الله المعروف بذي النفس الذكية، وأخيه إبراهيم[٢]. ففي خلال تلك الفتنة توقفت الحرب إلى حد ما مع البيزنطيين حتى عام ١٤٦هـ /٧٦٣م، وبعد انتهائها عمد أبو جعفر المنصور إلى الجهاد وغزو الروم البيزنطيين في عقر دارهم، فتحول البيزنطيون من الهجوم المستمر على الدولة الإسلامية إلى الدفاع عن ثغورهم لإنقاذها من السقوط في أيدي المسلمين [٣].

ومما تجدر الإشارة إليه أن المسعودي أشار إلى أن أول فداء بين المسلمين والبيزنطيين في العصر العباسي حدث في عام ١٨٩هـ /٨٠٥ م على عهد هارون الرشيد(١٧٠– ١٩٣هـ/٧٨٦– ٨٠٩ م)، حيث يقول:"كان أول فداء جرى في أيام ولد العباس في خلافة الرشيد باللامس"[٤]؛ ولكن من المرجح أن هذه الرواية تحتمل أمرين: إما أن يكون المقصود أنه أول فداء تم على نهر اللامس، أو أن يكون المراد أنه أول

١- عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ص ١٤٧.

٢- عن فتنة محمد بن عبد الله المعروف بذي النفس الذكية بالتفصيل انظر:

- ابن خياط: المصدر السابق، ص ٤٢١ – ٤٢٣؛

- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ٥١٣ – ٥٢٧ ، ٥٢٩ – ٥٥٥ .

٣- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٨٨؛

- ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٧١١، ٧١٢؛

= عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ص١٤٨ – ١٥٠.

٤- المسعودي: التنبيه والإشراف ، ليدن ١٨٩٣م، ص ١٨٩ .

فداء حدث في العصر العباسي؛ وإن كان الاحتمال الثاني مستبعدا لما ذكر من قبل من وجود أفدية على عهد الخليفة أبي جعفر المنصور عام ١٣٩ هـ/ ٧٥٦ م[١]، مما يرجح أن المراد من رواية المسعودي بأنه أول فداء تم على نهر اللامس، ويؤكد ذلك أنه لم يرد اسم نهر اللامس في الأفدية التي تمت قبل عهد هارون الرشيد بما في ذلك العصر الأموي.

على أية حال، فقد حدث فداء نهر اللامس على عهد هارون الرشيد والإمبراطور البيزنطي نقفور الأول(١٨٧- ١٩٦هـ /٨٠٢ - ٨١١م)؛ وتولى أمر ذلك الفداء من قبل هارون الرشيد ابنه القاسم، وكان معسكرا بمرج دابق[٢]، كما قام بمتابعة وتنظيم ذلك الفداء أبو سليم فرج خادم الرشيد، وسالم البرلسي البربري مولى بني العباس، وبدأت عملية الفداء خلال أثني عشر يوما، وفودي فيها من المسلمين حوالي أكثر من ثلاثة آلاف وسبعمائة [٣]؛ وتم الفداء بين المسلمين والبيزنطيين حتى " لم يبق بأرض الروم مسلم إلا فودي به"[٤].

وقد أشار ابن خلدون إلى فداء سابق لهذا الفداء في عهد هارون الرشيد قام به ابنه القاسم في عام ١٨٧هـ / ٨٠٢م، حيث حاصر حصن قرة، وشدد الحصار عليه، كما أرسل جعفر ابن الأشعث إلى حصن سنان وشدد الحصار عليه حتى" جهد أهله وفادى الروم بثلاثمائة أسيرا من المسلمين"؛ وكان من شروط ذلك الفداء أن يرفع ابن الأشعث الحصار عن الحصن، ويرحل عنهم، فقبل تلك الشروط ورحل عنهم مقابل فداء

١- الطبري: المصدر السابق، حوادث ١٣٩، مجلد ٤، ص١٥٥٦؛
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، ج ٥، ص ٤٨٨ ؛
- ابن خلدون المصدر السابق ، ص ٧١١ .

٢- دابق: قرية قرب حلب من أعمال عزاز، بينها وبين حلب أربعة فراسخ، عندها مرج معشب نزهة، لذلك عرفت بمرج دابق، انظر :
- ياقوت الحموي: معجم البلدان، المجلد الثاني، ج ٤، ص ٢٧١.

٣- المسعودي: المصدر السابق ، ص ١٩٠.

٤- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٦، بيروت ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥ م، ص ١٩٣، وراجع:
- ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٧٢٤.

أسرى المسلمين في حصن سنان[1]؛ ويبدو أن المؤرخين المعاصرين لم يذكروا ذلك الفداء لأنه كان فرديا قام به ابن الأشعث من قبل القاسم دون الرجوع إلى الخليفة.

كذلك حدث فداء آخر في عهد هارون الرشيد عام ١٩٢هـ/ ٨٠٨ م بالبذندون، تولاه من قبله ثابت بن نصر بن مالك الخزاعي أمير الثغور[2]، وحضره " مئو ألوف من الناس وكان عدة من فودي به من المسلمين في سبعة أيام ألفين وخمس مائة ونيفا من ذكر وأنثى"[3]. ويعد ابن خلدون أن ذلك هو الفداء الثاني في عهد هارون الرشيد[4]، متفقا في ذلك مع رأي المسعودي والطبري وغيرهما من المؤرخين، على الرغم أنه أشار إلى فداء عام ١٨٧هـ/ ٨٠٢ م الذي قام به ابن الأشعث، مما يؤكد أن المؤرخين كانوا لا يعدون الأفدية الفردية التي يقوم بها بعض القواد ضمن الأفدية التي كانت تشرف عليها دار الخلافة مباشرة وتقيم لها إجراءات منظمة[5] على الرغم أنها كانت تشمل إطلاق عدد لا بأس به من الأسرى .

ولقد اتسم عهد الخليفة الواثق العباسي (٢٢٧ - ٢٣٢هـ /٨٤٢ - ٨٤٧م) بحالة هدوء نسبي في علاقته الحربية مع الروم البيزنطيين مما مكنه من إتمام أشهر فداء في عهد الدولة العباسية حيث اغتنم الفرصة ولجأ إلى فداء الأسرى؛ وكان فداء لم يعقبه حرب مع الروم البيزنطيين بعكس الحال عن الأفدية التي حدثت في عهدي أبي جعفر المنصور وهارون الرشيد، إذ كان يعقبها اشتعال حركة الجهاد على أشدها، بل بشدة لم يعرف لها مثيل قبل[6]. ولقد تم هذا الفداء في عام ٢٣١ هـ / ٨٤٦م[1]في عهد

١- ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٧٢٤.

٢- الطبري: المصدر السابق، مجلد ٥، حوادث ١٩٢ هـ، ص ١٧٤٦؛
- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٠٨؛
- ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٧٢٥.

٣- المسعودي: المصدر السابق ، ص ١٩٠؛
- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٠٩.

٤- ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٧٢٥.

٥- عن إجراءات تبادل الأسرى: انظر الصفحات التالية من البحث.

٦- عن حركة الجهاد ضد البيزنطيين في عهدي أبي جعفر المنصور وهارون الرشيد انظر :

الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثالث(٢٢٧- ٢٥٣ هـ/ ٨٤٢ - ٨٦٧ م)(٢) الذي أرسل إلى الخليفة الواثق " يذكّــره كثرة من بيده من أسارى المسلمين ويدعوه إلى الفداء"(٣).

وتشير بعض المراجع إلى أن سبب قبول الخليفة الواثق لذلك الفداء يرجع إلى سوء الأحوال الداخلية بعد وفاة المعتصم بسبب اشتعال الفتن في أنحاء الخلافة العباسية، منها ثورات الخوارج وثورة الأكراد في أعالي العراق، وفي نفس الوقت لم تكن أحوال الإمبراطورية البيزنطية بأحسن حال بعد ما أصابها من هزائم متلاحقة وخطيرة في صقلية (٤)، مما كان سببا في هدوء الأحوال ووقف الحرب بين المسلمين والبيزنطيين طوال عهد الخليفة الواثق.

- ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٧١١، ٧١٢، ٧٢٤، ٧٢٥؛
- حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، القاهرة ١٩٩٥م، ص ١٢٨ - ١٣٦ ؛
- عبد العزيز أحمد الدوري: العصر العباسي الأول، بيروت ١٩٨٨م، ص٧٣ - ٧٤،١١٣ - ١١٦؛
- عصام الدين عبد الرءوف: دراسات في تاريخ الدولة العباسية، القاهرة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص ٥٣ - ٥٦ ؛
- حسنين محمد ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة ١٩٩٥م، ص ١٢٥ - ١٢٨.

١- ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ٤٨٠؛
- الطبري: المصدر السابق، مجلد ٥، ص ١٩٣١؛
- ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: خليل المنصور، بيروت ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦م، ص ٤٣؛
- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول: تحقيق: خليل المنصور، بيروت ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧م، ص ١٢٤.

٢- ميخائيل الثالث: من الأسرة العامورية، تولى عرش الإمبراطورية البيزنطية بعد وفاة أبيه ميخائيل الثاني في عام ٢٢٧ هـ / ٨٤٢ م، وكان صغير السن فقامت بالوصاية عليه أمه ثيودورا، انظر:
- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ١٢٤؛
- جوزيف نسيم يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية، الإسكندرية ١٩٨٤م، ص ١٤١ ، ١٤٢؛
- حمد مرسي الشيخ: المرجع السابق ، ص ١٧٧.

٣- اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، بيروت ١٣٧٩ هـ/١٩٦٠م، المجلد الأول، ج ٢، ص ٤٨٢ .

٤- السيد الباز العريني: المرجع السابق، ص ٢٩٩.

وقد أسهبت المصادر في وصف الفداء الذي حدث على عهد الواثق، حيث عين له الخليفة والي الثغر أحمد بن سعيد بن مسلم بن قتيبة الباهلي- وهو أحد أحفاد القائد العربي الشهير مسلم بن قتيبة الباهلي- وجعل معه أحد القادة الأتراك، ويدعى خاقان الخادم المعروف بأبي رمله، وجعفر بن أحمد الحـــــذّاء صاحب الجيش(١)؛ وجاء المسلمون بأسراهم، وكذا الروم على جانب نهر اللامس قرب طرسوس من مدن الثغور، فأقام كل منهما جسرا لتبادل الأسرى. وقد تم الاتفاق على فداء كل نفس دون تفرقة بين فتى أو شيخ كبير أو صغير أو حتى مسلم أو ذمي من سكان دار الإسلام(٢) حتى بلغ من افتدى" من المسلمين نحواً من أربعة آلاف رجل وستمائة ونحوها من النساء والصبيان"(٣) وقيل" أربعة آلاف وثلاثمائة واثنين وستين من ذكر وأنثى، وقيل أربعة آلاف وسبعة وأربعين"(٤) وقيل "عدتهم كانت أربعة آلاف وأربعمائة وستين نفسا النساء وأزواجهن وصبيانهن ثمانمائة وأهل ذمة المسلمين مائة أو أكثر"(٥)، وقيل إن "عدة الأسرى المسلمين أربعة آلاف وأربع مائة وستين نفسا، والنساء والصبيان ثماني مائة، وأهل ذمة المسلمين مائة نفس"(٦). ولاشك أن دخول أهل الذمة في ذلك الفداء يدل على مدى التسامح الكبير الذي عني به المسلمون نحو رعاياهم من أهل الذمة.

١- اليعقوبي: المصدر نفسه ، ص ٤٨٢؛
- الطبري: المصدر السابق، مجلد ٥، ص١٩٣٢، ١٩٣٣؛
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٧، بيروت ١٩٦٥م، ص ٢٤؛
- ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، ص ١٢٤.
٢- الطبري: المصدر السابق، مجلد ٥، ص١٩٣٢، ١٩٣٣؛
- ابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٢٤؛
- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ، ص ١٢٤؛
- السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية ص٢٩٩.
٣- ابن خياط:المصدر السابق، ص ٤٨٠.
٤- المسعودي: المصدر السابق ، ص ١٩٠.
٥- الطبري: المصدر السابق ، مجلد ٥، ص ١٩٣٢.
٦- ابن الأثير: المصدر السابق، ص٢٤، ٢٥، وراجع:
- ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٧٥١.

ومما تجدر الإشارة إليه في ذلك الصدد أنه بلغ من تعصب الخليفة الواثق لمسألة خلق القرآن الكريم التي أثيرت من قبل في عهد الخليفة المأمون(١٩٧- ٢١٨هـ/ ٨١٣ - ٨٣٣ م) أنه أمر بأن يمتحن الرجل من الأسرى في تلك القضية، فمن قال بأن القرآن مخلوق تم فداؤه بل وأخذ دينارين، ومن قال عكس ذلك بقي في أيدي الروم. ولقد أدى ذلك التعصب الأحمق إلى أن فضل بعض الأسرى البقاء في أسر الروم على أن يقول بخلق القرآن[١]. وقام بمهمة امتحان الأسرى خاقان الخادم، وجعفر الحذّاء[٢]، بينما أبى أحمد بن مسلم والي الثغور الانقياد وراء قضية ومحنة خلق القرآن " فنالته محن ومهانة إلى أن تخلص"[٣] أي عزل من ولاية الثغور؛ وقيل في سبب عزله أنه بعد أن فرغ من ذلك الفداء غزا الروم البيزنطيين شاتياً مما عرض المسلمين للبرد والثلج فمات منهم حوالي مائتي، وأسر مثلهم، وغرق منهم عدد كبير؛ إلا أنه حاول أن يتدارك الهزيمة، فواصل مهاجمته للروم وغنم منهم" نحو من ألف بقرة وعشرة آلاف شاة"[٤] إلا أن الخليفة الواثق عزله وولى مكانه على الثغور نصر بن حمزة الخزاعي[٥].

وفي عهد الخليفة المتوكل (٢٣٢ -٢٤٧ هـ /٨٤٧ - ٨٦١ م) ساءت أحوال أسرى المسلمين بأرض الروم إذ قامت ثيودورا الوصية على ابنها الإمبراطور ميخائيل الثالث بتحريض الأسرى على ترك دينهم واعتناق النصرانية، وإلا تعرضوا للقتل[٦]، وكان

١- المسعودي : المصدر السابق ، ص ١٩٠؛
- الطبري: المصدر السابق، مجلد ٥، ص ١٩٣٢؛
- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٥؛
- ابن العبري: المصدر السابق، ص ١٢٤.
٢- اليعقوبي: المصدر السابق ، ص ٤٨٢ .
٣- المسعودي : المصدر السابق ، ص ١٩٠
٤- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٥؛
- ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٧٥١.
٥- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٥؛
- ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٧٥١.
٦- الطبري: المصدر السابق، مجلد ٥، ص ١٩٥٤،

عددهم حينئذٍ حوالي عشرين ألفا. وعندما علم بذلك الخليفة المتوكل أرسل نصر بن الأزهر بن فرج الشيعي ليستطلع أوضاع الأسرى بأرض الروم ويطالب بمفاديتهم، ووافق الروم على المفاداة، وتحدد يوم عيد الفطر من عام ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م لإتمام الفداء، لكن بعد عودة نصر بن الأزهر من أرض الروم قاموا بعرض الأسرى المسلمين أمامهم وعرضوا عليهم التنصير وإلا يقتلوا، ولما رفضوا قتل منهم حوالي أثني عشر ألفا[١]؛ وعندما حان وقت الفداء تقدم الروم حتى اجتمعوا على نهر اللامس، كما تقدم المسلمون يتقدمهم علي بن يحيى الأرميني صاحب الثغور الشامية[٢]، وقاضي القضاة جعفر بن عبد الواحد[٣]؛ وتم الفداء، وكان عدد من فودي من الأسرى المسلمين كما يشير الطبري " سبعمائة وخمسة وثمانين إنسانا، ومن النساء مائة وخمس وعشرين امرأة"[٤]، في حين يشير المسعودي إلى عدد من فودي فيقول:" فكان عدة من فودي به من المسلمين في سبعة أيام ألفي رجل ومائتي امرأة "[٥]. ويبدو أن رواية المسعودي أكثر دقة، يؤكد ذلك ما أشار إليه الطبري من أن عدد أسرى المسلمين في أرض الروم كانوا عشرين ألفا، قتل منهم ممن رفض التنصير أثني عشر ألفا، مما يوضح أن هناك أعداد غفيرة من أسرى المسلمين في أرض الروم مما يرجح رواية المسعودي.

ويشير المسعودي إلى أن أهل الذمة لم يدخلوا في ذلك الفداء فيقول:" وكان مع الروم من النصارى المأسورين من أرض الإسلام مائة رجل ونيف فعوضوا مكانهم عدة

- ابن الأثير: المصدر السابق ج ٧، ص ٧٦؛
- ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٧٥٥.
١- الطبري: المصدر السابق، مجلد ٥، ص ١٩٥٤.
٢- المسعودي: المصدر السابق ، ص ١٩١.
٣- الطبري: المصدر السابق، مجلد ٥، ص ١٩٥٤؛
- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٧، ص ٧٧؛
- ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٧٥٤.
٤- الطبري: المصدر السابق، مجلد ٥، ص ١٩٥٤.
٥- المسعودي: المصدر السابق ، ص١٩١ .

أعلاج إذ كان الفداء لا يقع على نصراني ولا ينعقد"[١]؛ ويخالف هذا ما جاء في رواية الطبري في فداء عام ٢٣١ هـ/ ٨٤٦ م الذي حدث في عهد الواثق، والذي فودي فيه عدد من أهل الذمة.

ولا شك أن سبب عدم فداء الخليفة لأهل الذمة في تلك المرة يرجع إلى سوء معاملة الروم البيزنطيين لأسرى المسلمين الذي بلغ إلى حد التنصير أو القتل، إذ قتل منهم- كما أشير من قبل- أثني عشر ألفا، في حين لم يقدم الروم على قتل أحد من أسرى أهل ذمة المسلمين لديهم؛ كما أنه من المنطقي أن يخصص الخليفة المتوكل ذلك الفداء لأسرى المسلمين فقط دون أهل الذمة بسبب كثرة عدد أسرى المسلمين، ولإنقاذ ما يمكن إنقاذه منهم، وإدراكا منه أن أهل الذمة لدى الروم لم يتعرضوا لما تعرض له إخوانهم من أسرى المسلمين من الأذى والتنكيل الذي لقوه من الروم.

ويشير ابن خلدون إلى قيام حالة فردية من الفداء في عهد المتوكل، حينما قام والي الثغور علي بن يحيي الأرميني بالصائفة في عام ٢٤٥هـ /٨٥٩م على حصن كركرة، فانتقض أهلها على البطريرك وقبضوا عليه وسلموه إلى المسلمين، لذلك سعى الروم إلى إطلاق سراح البطريرك وفدائه في مقابل ألف أسير من المسلمين[٢].

كما حدث فداء آخر في عهد الخليفة المتوكل في عام ٢٤٧ هـ /٨٦١ م[٣] والإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثالث[٤]، وقام بالمفاوضات فيه بالقسطنطينية كل من نصر بن الأزهر الشيعي ووالي الثغور علي بن يحيى الأرميني، حيث يقول نصر بن الأزهر كما ورد في الطبري:" وانقطع الأمر بيني وبينهم في الفداء على أن يعطوا جميع من عندهم وأعطي جميع من عندي وكانوا أكثر من ألف قليلا وكان جميع الأسرى الذين في أيديهم أكثر من ألفين منهم عشرون امرأة معهن عشرة من

١- المسعودي: المصدر السابق ، ص ١٩١

٢- ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٧٥٤.

٣- المسعودي: المصدر السابق ، ص ١٩٢؛

- الطبري: المصدر السابق، مجلد ٥، ص ١٩٦٠.

٤- جوزيف نسيم: المرجع السابق، ص ١٤٢.

الصبيان"[1]. أما المسعودي فيقول: إن "عدة من فودي به من المسلمين في سبعة أيام ألفان وثلثمائة وسبعة وستون من ذكر وأنثى"[2]؛ وتم فداء هؤلاء الأسرى وكان من بينهم أناس من أهل المغرب وصقلية، تمت مفاداتهم أيضا وإعادتهم إلى بلادهم[3]؛ ويشير ابن الأثير أيضا إلى ذلك الفداء ولكن في حوادث عام ٢٤٦ هـ/ ٨٦٠ م[4].

وتتابعت الأفدية بعد ذلك - كما يروي المسعودي- في فترات حكم المعتز، والمعتضد، والمكتفي، والمقتدر[5]؛ ففي عام ٢٥٣ هـ /٨٦٧ م يشير المسعودي إلى فداء في عهد الخليفة المعتز(٢٥٢ - ٢٥٥هـ/٨٦٦- ٨٦٨ م) والإمبراطور البيزنطي باسيل الأول (٢٥٣ - ٢٦٣هـ/٨٦٧ - ٨٨٦ م)، قام به شفيع الخادم من قبل الخليفة، تم فيه إطلاق عدد من أسرى المسلمين [6].

وفي تلك الآونة أسهم إلى جانب قوات الخلافة في الدفاع عن الثغور الشمالية المواجهة للروم أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية في مصر والشام (٢٥٩-٢٩٢ هـ/٨٧٢ - ٩٢٥ م) [7]، مما زاد من قوة المسلمين لذلك خشيه الروم وترضاه الإمبراطور باسيل الأول وذلك بإطلاق سراح من تحت يده من أسرى المسلمين، وأهدى إليه عدة نسخ من القرآن الكريم [8].

١-الطبري: المصدر السابق، مجلد ٥، ص ١٩٦٠، ١٩٦١.
٢- المسعودي: المصدر السابق ، ص ١٩٢.
٣- الطبري: المصدر السابق، مجلد ٥، ص ١٩٦٠؛
- فتحي عثمان: المرجع السابق، ص ٤٢٢.
٤- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٧، ص ٩٣.
٥- المسعودي: المصدر السابق ، ص ١٩٢ .
٦- المسعودي: المصدر السابق ، ص ١٩٢ .
٧- عن الدولة الطولونية انظر :
- البلوي: سيرة أحمد بن طولون، المكتبة العربية بدمشق ، د.ت.؛
-الأزدي: أخبار الدول المنقطعة، تحقيق: علي عمر، القاهرة ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠١ م ، ٦٥ - ٧٤ ؛
- حسن أحمد محمود وإبراهيم أحمد الشريف: المرجع السابق، ص ٣٢٨ - ٣٤٠؛
- عصام الدين عبد الرعوف: دراسات في تاريخ الدولة العباسية ، ص ١٩٥.
٨- حسن أحمد محمود وإبراهيم أحمد الشريف: المرجع السابق، ص ٣٣٨؛

وفي عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩- ٢٨٩هـ/٨٩٢-٩٠١م) والإمبراطور البيزنطي ليو السادس(٢٦٣- ٣٠٠ هـ/٨٨٦ - ٩١٢م) تم فداء في عام ٢٨٣هـ/٨٩٦م تولى أمره الطولونيون في مصر[١] الذين تولوا أمر الجهاد على الجبهة البيزنطية مع غيبة هيبة الخلافة العباسية، حيث كانوا يقومون بأمر الثغر آنذاك[٢]. وكان القائم على أمر الدولة الطولونية والممهد لذلك الفداء أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون(٢٧٠ - ٢٨٢ هـ/٨٨٣ - ٨٩٥ م)، حيث عقد هدنة مع الإمبراطور البيزنطي في عام ٢٨٢ هـ /٨٩٥ م، تم الاتفاق بينهما على إجراء ذلك الفداء، ولكن قتل أبو الجيش خمارويه في دمشق في ذي القعدة من عام ٢٨٢هـ /٨٩٥م، فتولى ابنه جيش بن خمارويه إمارة مصر والشام بعده، وقام بإتمام ذلك الفداء مع الروم البيزنطيين، فأسند إلى أحمد بن طغان أمير الثغور الشامية وإنطاكية إتمام تلك المهمة، لذلك عرف بفداء ابن طغان. وتمت عملية الفداء في شعبان عام ٢٨٣ هـ /٨٩٦ م على نهر اللامس " فكان عدة من فودي به من المسلمين في عشرة أيام ألفين وأربعمائة وخمسة وتسعين من ذكر وأنثى، وقيل ثلاثة آلاف رجل"[٣]. وذكر ابن الأثير " جملة من فدي به من المسلمين الرجال والنساء والصبيان ألفين وخمسمائة وأربعة أنفس"[٤].

أما في عهد الخليفة المكتفي(٢٨٩ - ٢٩٥هـ/٩٠١ -٩٠٧م) فقد حدث فداءان مع البيزنطيين إبان عهد الإمبراطور البيزنطي ليو السادس(٢٧٣- ٣٠٠ هـ/٨٨٦-٩١٢ م)، قام بهما رستم بن برد والفرغاني أمير الثغور الشامية[٥]. وتم الفداء الأول على نهر اللامس في عام ٢٩٢ هـ /٩٠٤ م " وكان عدة من فودي به من المسلمين

- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، القاهرة ١٩٥٣، ١٩٥٥م، ج ٣، ص ١٢٩.
١- المسعودي: المصدر السابق، ص ١٩٢.
٢- حسن أحمد محمود وإبراهيم أحمد الشريف: المرجع السابق، ص ٣٣٨.
٣- المسعودي : المصدر السابق : ص ١٩٢.
٤- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٧، ص ٤٧٩.
٥- المسعودي: المصدر السابق : ص ١٩٢؛
- ابن الأثير : المصدر السابق، ج ٧، ص ٥٣٧؛
- ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٧٩٩.

في أربعة أيام ألفا ومائة وخمسة وخمسين من ذكر وأنثى" [1]، وذكر ابن الأثير أن" جملة من فودي به من المسلمين ألف نفس ومائتي نفس"[2]؛ غير أنه لم يكتمل إذ أحجم البيزنطيون أثناء التبادل عن مواصلة الفداء، وغدروا بالمسلمين، وعادوا ببقية الأسرى المسلمين، لذلك عرف بفداء الغدر[3]. أما الفداء الثاني فكان في شوال من عام ٢٩٥هـ/٩٠٧م، وعرف بفداء التمام لأنه تمت فيه عملية استكمال للفداء الأول السالف ذكره " وكان عدة من فودي به من المسلمين ألفين وثمانمائة واثنين وأربعين من ذكر وأنثى"[4]، وقيل "كان عدة من فودي به من الرجال والنساء ثلاثة آلاف نفس"[5].

وفي عهد الخليفة المقتدر (٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٧-٩٣٢م)، أرسل لاسكندر عمّ الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع (٣٠١- ٣٤٨هـ/ ٩١٣ -٩٥٩م) [6] إلى الخليفة المقتدر في عام ٣٠٥ هـ/٩١٧م رسولين لطلب المهادنة والفداء، فاستقبلهما الخليفة خير استقبال ووافق على عقد الهدنة والفداء[7].

لاشك أن الذي حمل البيزنطيين على طلب الهدنة مع المسلمين في تلك الآونة سوء الأحوال الخارجية للإمبراطورية البيزنطية بسبب ازدياد نفوذ البلغار وتضيقهم على الإمبراطورية البيزنطية حتى أن ملكهم سيمون البلغاري (٨٩٣ - ٩٢٧م) أراد أن

١- المسعودي: المصدر السابق ، ص ١٩٢ .
٢- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٧ ، ص ٥٣٧.
٣- المسعودي: المصدر السابق ، ص١٩٢ .
٤- المسعودي: المصدر السابق ، ص ١٩٢ ، ١٩٣ .
٥- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨ بيروت ١٩٧٩م، ص ١٣.
٦- تولى قسطنطين السابع عرش الإمبراطورية البيزنطية بعد وفاة أبيه ليو السادس، وكان صغيرا في السن لذلك قام بالوصاية عليه عمه لاسكندر الذي تولى تدبير شئون الإمبراطورية نيابة عن ابن أخيه، انظر :
- جوزيف نسيم: المرجع السابق ، ص ١٥٢ ، ١٥٣؛
- محمد مرسي الشيخ: المرجع السابق، ص ٢٠٦، ٢٠٧.
٧- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ١٠٧؛
- ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٨١٤.

يجعل السيادة البلغارية على البلقان حقيقة واقعة، وأن يستولي على بيزنطة نفسها [1] الأمر الذي أدى إلى اضطراب أحوال الإمبراطورية البيزنطية، لذلك أقدموا على تلك الخطوة من مهادنة المسلمين. وبعد أن وافق الخليفة المقتدر على الهدنة والفداء بدأ بتنفيذ الفداء، وطلب من مؤنس الخادم[2] أن يتولى إتمامه، لذلك أعطاه صلاحيات كثيرة، حيث جعله أميرا على أي بلد يمر عليه ويتصرف فيه كيف يشاء إلى أن يخرج منه ويصل إلى المكان الذي يتم فيه الفداء، يضاف إلى ذلك أنه أرسل معه " مائة ألف وعشرين ألف دينار لفداء أسارى المسلمين"[3].

لاشك أن الخليفة المقتدر أعطى تلك الصلاحيات لمؤنس الخادم عند مروره بالبلدان الإسلامية حتى يستطيع أن يجمع أسرى الروم في أرض المسلمين لتتم عملية المبادلة، فإذ لم يكتمل أسرى الروم في أيدي المسلمين لمبادلتهم بالأسرى المسلمين في

١- جوزيف نسيم : المرجع السابق، ص ١٥٦ ، ١٥٧؛

- حسنين ربيع: المرجع السابق، ص ١٥٣، ١٥٤؛

-Ostogrorowsky, G.: History of Byzantine State,P. ٢٣٢-٢٣٥,

A.: History of the Byzantine Empire, ٣٢٤ -١٤٥٣, Madison ١٩٦١, Vol. ١, Vasiliev, A.- P. ٢٨١.

٢- مؤنس الخادم: الملقب بالمظفر المعتضدي وهو أحد الخدام الذين بلغوا رتبة عالية و كان لهم دوركبير في تولية المقتدر الخلافة ، تولى شرطة الحضرة للخليفة المقتدر، لما ذادت حاجة القادة الأتراك إلى الأموال وعجز عنها المقتدر أسهم مؤنس الخادم في خلعه من الخلافة وتولية أخيه القاهر، ولما لم يوف القاهر بالأموال تم عزله وأعيد المقتدر إلى الخلافة وساءت العلاقة بينه وبين مؤنس الخادم، وقتل المقتدر وأعيد القاهر مرة أخرى إلى الخلافة، فكان أن دبر التخلص من القادة الأتراك وعلى رأسهم مؤنس الخادم فقتل في عام ٣٢١ هـ، انظر:

- الهلال الصابئ: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الناشر مكتبة الأعيان د.ت.، ص ٢٨ – ٦٢؛

= ابن زيد: تاريخ الخلفاء- رواية أبي بكر السدوسي، تحقيق: مصيغ الحافظ، مؤسسة الرسالة، بيروت د.ت.، ص٥٢ – ٥٨؛

- حسن أحمد محمود وإبراهيم أحمد الشريف: المرجع السابق، ص ٢٨٢ – ٢٨٤.

٣- ابن الأثير:المصدر السابق، ج ٨، ص ١٠٧؛

- ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٨١٤، ٨١٥.

أرض الروم يقوم مؤنس الخادم باستكمال الفداء عن طريق شراء أسرى المسلمين، لذلك أعطى له ذلك المبلغ الكبير من المال؛ والأكثر من ذلك أن الخليفة أمر أن يُحمل ما يوفر من أموال بعد تسديد جميع نفقات الدولة إلى مؤنس الخادم " ليصرف فيما يحتاج إليه من نفقات الموسم ومن يخرج في الغزوات الصائفة ونفقات الأبنية والمرمات والحوادث والملمات والرسل الواردين والفداء"[١].

ولقد تم هذا الفداء على نهر اللامس في شهر ربيع الآخر عام ٣٠٥ هـ /٩١٧ م، وحضره مع مؤنس الخادم أمير الثغور الشامية وإنطاكية بشر الخادم الإفشيني، وكان الوسيط فيه بين المسلمين والبيزنطيين والمساعد عليه أبو عمير عدي بن أحمد بن عبد الباقي التميمي الإذني[٢]؛ كما حضره أيضا السفيران البيزنطيان اللذين سارا بصحبة مؤنس الخادم إلى اللامس[٣]، وكان " عدة من فودي به من المسلمين في ثمانية أيام ثلاثة آلاف وستة وثلاثون من ذكر أو أنثى"[٤].

كما حدث فداء آخر في عهد الخليفة المقتدر في عام ٣١٣ هـ /٩٢٥ م[٥]، وقيل في عام ٣١٢ هـ /٩٢٤ م[٦]، إذ أرسل الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع سفيره إلى الخليفة المقتدر بكثير من الهدايا، وبصحبته السفير أبو عمير التميمي - السفير المسلم في أرض البيزنطيين، والتوسيط أيضا في أمر ذلك الفداء - وطلب منه الهدنة والفداء، فأجابه الخليفة المقتدر ولكنه اشترط أن يكون ذلك بعد غزاة الصائفة[٧]، ثم أسند الخليفة إلى مفلح الخادم الأسود المقتدري أن يتولى أمر ذلك الفداء ومعه متولي أمر الثغور الشامية بشرى الخادم الإفشيني، وكان قد خلف ثمل الخادم الدلفي على

١- الهلال الصابئ: المصدر السابق، ص ٢٧.
٢ - المسعودي: المصدر السابق ، ص ١٩٣.
٣- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ١٠٧.
٤- المسعودي : المصدر السابق ، ص ١٩٣ .
٥- المسعودي: المصدر السابق ، ١٩٣ .
٦- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ١٥٧؛
- ابن خلدون: المصدر السابق، ص٨١٥.
٧- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ١٥٧.

الثغور، فتم ذلك الفداء وكان"عدة من فودي به من المسلمين في تسعة عشر يوما ثلاثة آلاف وتسع مائة وثلاثة وثمانون من ذكر وأنثى"[١].

أما في عهد الخليفة الراضي(٣٢٢- ٣٢٩هـ /٩٣٣-٩٤٠م) فقد حدث فداء في ذي الحجة عام ٣٢٦هـ /٩٣٧م بين المسلمين والبيزنطيين على عهد الإمبراطور قسطنطين السابع، تم أيضا على نهر اللامس، وكان القائم عليه ابن ورقاء الشيباني من قبل الوزير جعفر بن الفرات، وبشر الثملي أمير الثغور الشامية[٢]" وكان عدة من فودي به من المسلمين في ستة عشر يوما ستة آلاف وثلاثمائة ونيفا من ذكر وأنثى"[٣]، إلا أنه لم يكتمل إذ بقي في أيدي البيزنطيين من المسلمين بعد ذلك الفداء ثمانمائة رجل عادوا إلى القسطنطينية، ثم حدث فداء لهؤلاء على عدة فترات بعد ذلك؛ وتم ذلك الفداء على عدة مراحل على نهر البذندون، لذلك فقد امتدت الهدنة بين المسلمين والبيزنطيين بعد ذلك الفداء مدة ستة أشهر، حتى يتم فداء من بقي في أيدي البيزنطيين، وحتى يتوفر للمسلمين جمع أسرى الروم لتتم عملية المبادلة، لذلك كانت المبادلة تتم " في مرار شتى"[٤].

وفي عهد الخليفة المتقي(٣٢٩-٣٣٣هـ/٩٤٠- ٩٤٤م) أرسل الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع إلى الخليفة يطلب منه منديلا في بيعة الرها[٥]- زعموا أن المسيح كان قد مسح به وجهه فارتسمت به صورته- وعرض عليه في مقابل ذلك أن

١- المسعودي : المصدر السابق ، ص ١٩٣ .

٢- المسعودي: المصدر السابق ، ص ١٩٤؛
- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٣٥٢؛
- ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٨٢٨.

٣- المسعودي: المصدر السابق ، ص ١٩٣ وراجع :
- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٣٥٢.

٤- المسعودي: المصدر السابق ، ص ١٩٣، ١٩٤ .

٥- الرها: مدينة عظيمة مشهورة واسعة الأقطار عامرة الديار وهى من أرض الجزيرة الفراتية، وتتصل بأرض حران، انظر:
- ابن الوردى: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص٤٢.

يطلق سراح أسرى المسلمين في القسطنطينية، فاستشار الخليفة الفقهاء والقضاة من أجل تسليم ذلك المنديل فاختلفوا إلى أن أشار عليه وزيره علي بن عيسى[١] بإرساله إليهم لإطلاق سراح أسرى المسلمين، فاستجاب الخليفة وأرسل إليهم المنديل الذي يزعمونه وعين من يقوم باستلام أسرى المسلمين في القسطنطينية [٢].

أما في خلافة المطيع (٣٣٤ – ٣٦٣ هـ/٩٤٥ -٩٧٣م) فقد حدث فداء على اللامس في عام ٣٣٥هـ /٩٤٦م، شرع فيه محمد بن طغج الإخشيد أمير مصر والشام، وكان الوسيط فيه أيضا أبو عمير عدي بن أحمد الإذني شيخ الثغر آنذاك،حيث قدم إلى دمشق في عام ٣٣٤ هـ /٩٤٥م؛ كما كان المسعودي شاهد عيان على تلك الأحداث فيقول:" قدم إليه إلى دمشق في ذي الحجة ٣٣٤ هـ ونحن يومئذ بها"[٣]؛ وكان مع أبي عمير عندما قدم إلى دمشق رسول الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع من أجل إتمام ذلك الفداء مع الإخشيد. وفي أثناء ذلك اشتد المرض بمحمد بن طغج الإخشيد وهو في دمشق ومات في ذي الحجة من عام ٣٣٤ هـ. /٩٤٥م قبل إتمام الفداء، فاضطر كافور الإخشيد إلى العودة بالجيش إلى مصر واصطحب معه أبو عمير ورسول الروم؛ وعندما وصلوا إلى فلسطين سلم إليهم ثلاثين ألف دينار من مال الفداء الذي كان قد أعدها محمد بن طغج الإخشيد قبل وفاته؛ وبعد أن أخذ أبو عمير مال الفداء توجه وبصحبته رسول الروم إلى مدينة صور ومنها ركب البحر إلى طرسوس؛ فلما وصلا إليها كاتب نصر الثملي أمير الثغور الشامية أبا الحسن سيف الدولة بن حمدان صاحب جند حمص وقنسرين وديار بكر والثغور الجزرية والشامية، ودعا له على منابر الثغور الشامية، فتولى الثملي إتمام ذلك الفداء باسم الحمدانيين، لذلك نسب

١- أبو الحسن علي بن عيسى بن داود الجراح، كتب في الدواوين وتولى رئاسة بعضها، ثم تولى الوزارة للخليفة المقتدر مرتين، وكانت وفاته يوم الجمعة ذي الحجة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥م، انظر:
- الهلال الصابئ: المصدر السابق، ص ٣٠٥ – ٣٤٤.
٢- ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٨٣٣.
٣- المسعودي: المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

إلى سيف الدولة بن حمدان على الرغم أن الذي شرع فيه هو الإخشيد[1]؛ وتم الفداء ومبادلة الأسرى" وكان عدة من فودي به من المسلمين ألفين وأربعمائة واثنين وثمانين من ذكر وأنثى"[2]، وكان قد بقي مع الروم من الأسرى المسلمين حوالي مائتان وثلاثون أسير ولكن تمكن سيف الدولة من مفاداتهم بعد أن جمع لهم نفس العدد من أسرى الروم في أرض المسلمين[3].

وقد أشار المسعودي إلى عدة أفدية لم يتثبت منها صحتها مثل أفدية النقاش الإنطاكي أيام المهدي، وعياض بن سنان أيام الرشيد سنة ١٨١هـ/ ٧٩٧ م، وثابت بن نصر أيام الأمين سنة ١٩٤ هـ/ ٨١٠ م، ومحمد ابن علي أيام المتوكل سنة ٢٤٧ هـ/ ٨٦١ م [4].

٣- إجراءات الفداء وتبادل الأسرى

يتضح من خلال العرض السابق للأفدية التي حدثت في العصرين الأموي والعباسي عدة محاور أساسية تتعلق بعمليات إجراء الفداء وتبادل الأسرى بين المسلمين والبيزنطيين هي:

أولاً- الاتصالات الدبلوماسية التي كانت تسبق الفداء:

تضمنت الاتصالات الدبلوماسية بين المسلمين والبيزنطيين بشأن الأسرى وعملية تبادل الفداء العديد الأمور التي كانت تتعلق إما بالسفراء أنفسهم أو بوسائل إجراء عملية الفداء منها:

١- المسعودي: المصدر السابق ، ص ١٩٤ ، ١٩٥ .
٢- المسعودي: المصدر السابق ، ص ١٩٤، وراجع:
- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٤٦٨.
٣- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٤٦٨.
٤- المسعودي: المصدر السابق ص ١٩٥ .

أ- مكانة السفراء:

كانت تسبق عملية الفداء وتبادل الأسرى بين المسلمين والبيزنطيين بعض الاتصالات الدبلوماسية، وكان التمثيل الدبلوماسي آنذاك يقتضي إرسال سفير يتفاوض في أمر الفداء، أو عقد هدنة بين الطرفين؛ ففي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز(رضي الله عنه) أرسل السفير عبد الرحمن بن أبي عمرة إلى البيزنطيين للتفاوض في أمر الفداء الذي تم على عهده[١]؛ واتسم التمثيل الدبلوماسي في تلك الفترة المبكرة بين المسلمين والبيزنطيين بإتباع نظم التزم بها الفريقان حتى يتمكن السفراء من تأدية مهمتهم على أتم وجه، منها تزويد السفير بخطاب يحمل تعريفا بشخصيته، والغرض من رسالته، وتخويله حق التحدث رسميا باسم دولته، هذا بالإضافة إلى تمتع السفراء بكافة أنواع الحصانة الدبلوماسية التي نعرفها اليوم؛ إذ كان السفير يعتبر رمز الدولة التي توفده، وله كافة الحقوق التي لحاكم دولته[٢]؛ يؤكد ذلك موقف نصر بن الأزهر الشيعي الذي أرسله الخليفة المتوكل لتقرير أمر الفداء مع البيزنطيين في عام ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م، حيث منع في البداية من الدخول على الإمبراطور البيزنطي حاملا سيفه وخنجره، فأبى نصر أن يجرد من سيفه وخنجره وفضل العودة لوطنه مما اضطر الإمبراطور إلى الموافقة على دخوله ومقابلته ومعه سلاحه [٣]. ولا شك أن ذلك يؤكد أن الإمبراطور يدرك تماما أن السفير يمثل الخليفة الذي أوفده وأن له كافة الحقوق التي للخليفة.

١- سعيد بن منصور: سنن سعيد بن منصور، الحديث رقم (٢٨٢٢).

٢- إبراهيم العدوي: الأمويون والبيزنطيون، ص ٢٨١؛

- رعد البرهاوي: المرجع السابق، ص ٢٣٤؛

- علي محمد الصلابي: الدولة الأموية، ج ١، ص٣٧٥ ، ٣٧٦ ؛

- عبد الرحمن محمد عبد الرحمن: الدبلوماسية الإسلامية، ص ١١٩ - ١٢٦.

٣- الطبري: المصدر السابق، مجلد ٥، ص ١٩٦٠؛

- أسد رستم: الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب"، دار المكشوف، بيروت ١٩٥٥، ١٩٥٦م، ج١، ص ٣٢٨؛

- نصرت عبد الرحمن: شعر الصراع مع الروم، ص ١٤٦.

ولم يكن المسلمون وحدهم هم الذين يرسلون سفراء إلى البيزنطيين في طلب الفداء بل كان البيزنطيون أيضا يسعون في كثير من الأحيان إلى عقد الهدن والفداء، ففي عهد الخليفة المقتدر " وصل رسولان من ملك الروم إلى المقتدر يطلبان المهادنة والفداء"(١).

وقد حرص المسلمون والبيزنطيون على إظهار الحفاوة بالسفراء وإغداق مظاهر التكريم عليهم إذ قصد كل من الطرفين إظهار عظمته للطرف الآخر، والعمل على ترك أطيب الأثر على نفسه، بل أن ذلك كان من الوسائل الفعّالة في حل المشاكل وتصفية الأحقاد، ويؤكد ذلك ابن الأثير فيقول" وصل رسولان ملك الروم إلى المقتدر يطلبان المهادنة والفداء، فأكرما إكراما كثيرا، وأدخلا على الوزير وهو في أكمل أبهة، وقد صف الأجناد بالسلاح والزينة التامة وأديا الرسالة إليه، ثم أنهما دخلا على المقتدر، وقد جلس لهما، واصطف الأجناد بالسلاح والزينة التامة وأديا الرسالة فأجابهما المقتدر إلى ما طلب ملك الروم من الفداء"(٢).

ولا شك أن هذه الرواية توضح الكثير من المراسيم الرسمية والبرتوكولات الخاصة باستقبال السفراء والوفود والتي تتبعها الدول في الوقت الحاضر.

ب- مواكب السفراء:

كذلك كان السفير المتحدث في الفداء ترافقه حاشية فاخرة محملة بالهدايا والألطاف السنية والجواهر والذهب والحرير والوشي توجه إلى العاهل الذي يقصده ركب السفراء(٣) سواء إلى الإمبراطور أو إلى الخليفة. ويذكر ابن الأثير في الفداء الذي حدث في عهد المقتدر في عام ٣١٣ هـ/ ٩٢٥ م أنه " ورد رسول ملك الروم بهدايا

١- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ١٠٧.

٢- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ١٠٧، وراجع:

- ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٨١٤، ٨١٥.

٣- ستيفن رنسيمان: الحضارة البيزنطية، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة ١٩٩٤م، ص ١٨٧ .

كثيرة ، ومعه أبو عمير بن عبد الباقي فطلبا من المقتدر الهدنة وتقرير الفداء"[١]. كما يتضح ذلك أيضا فيما ورد على لسان نصر بن الأزهر الشيعي المتحدث في فداء عام ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م حيث قال: " لما صرت إلى القسطنطينية حضرت دار ميخائيل الملك- بسوادي وسيفي وخنجري وقلنسوتي، وجرت بيني وبين خال الملك بطرناس المناظرة- وهو القيم بشأن الملك- وأبَوا أن يدخلوني بسيفي وسوادي، فقلت: انصرف فانصرفت- ترددت من الطرق ومعي من الهدايا نحو من ألف نافجة مسك وثياب حرير وزعفران كثير وطرائف، وقد كان أذن لوفود برجان وغيرهم ممن ورد عليه، وحملت الهدايا التي معي فدخلت عليه فإذا هو على سرير فوق سرير وإذا البطارقة حوله قيام فسلمت ثم جلست على طرف السرير وقد هُيئ لي مجلس ووضعت الهدايا بين يديه، وبين يديه ثلاثة تراجمه .... فقالوا لي: ما نبلغه قلت لا تزيدون على ما أقول لكم شيئا فأقبلوا يترجمون ما أقول فقبل الهدايا ولم يأمر لأحد منها بشيء، وقربني وأكرمني وهيأ لي منزلا بقربه فخرجت فنزلت في منزلي"[٢]. ويتضح من هذه الرواية أيضا أن هناك تراجمة يقومون بترجمة ما يدور من مناقشات ومفاوضات بين الطرفين حول الفداء وغيره من الاتصالات الدبلوماسية.

ج- خبرة السفراء:

لا شك أن لخبرة السفير بأحوال البلاد التي كان يرسل إليها ومعرفته بظروفها وطرقها ومسالكها كانت تمثل عاملا هاما وجوهريا في إتمام عملية الفداء وإنجاحها، لذا فقد أخذ في الاعتبار إرسال السفراء الذين يتمتعون بخبرة كبيرة بأحوال البيزنطيين والمسلمين وأخبار الثغور، ومن أبرز هؤلاء السفراء مسلم بن أبي مسلم الجرمي الذي أرسل في فداء عام ٢٣١ هـ / ٨٤٦م في عهد الخليفة المتوكل" وكان ذا محل في الثغور ومعرفة بأهل الروم وأرضها وله مصنفات في أخبار الروم وذوي المراتب منهم وبلادهم وطرقها ومسالكها وأوقات الغزو إليها والغارات عليها ومن جاورهم من

١- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ١٥٧.

٢- الطبري: المصدر السابق، مجلد ٥، ص ١٩٦١.

الممالك "[1]، وأبو عمير عدي بن أحمد بن عبد الباقي الأذني، السفير المسلم في الفداء الذي حدث في عام٣١٣ هـ / ٩٢٥ م من عهد المقتدر[2] وكذلك في فداء عام ٣٣٥ هـ /٩٤٦ في عهد المطيع[3] " وكان ذا رأي وفهم بأخبار ملوك اليونانيين والروم ومن عاصرهم من الفلاسفة، وقد أشرف على شيء من آرائهم"[4].

د- المفاوضات بشأن الأسرى:

لم تكن عملية الفداء من الأمور البسيطة بل كان يكتنفها الكثير من الصعوبات التي تواجه المتفاوضين، وإن كان يتركز معظمها حول عدد الأسرى بين الطرفين وأحوالهم وكيفية المبادلة، لذلك كان يستغرق انعقاد الكثير من المناقشات والمفاوضات وقتا طويلا حتى تتم عملية الفداء وتبادل الأسرى بين الطرفين. ففي العصر الأموي وافق المتفاوض في أمر الفداء الذي تم في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) على مفاداة الأسير المسلم بعشرة من البيزنطيين وذلك لكثرة عدد أسرى الروم في تلك الآونة عن عدد أسرى المسلمين[5]؛ كما اتبع نفس الشيء في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور حيث كان يُفادى فيه الأسير المسلم أيضا بعشرة من البيزنطيين[6]. ولكن اتضحت صورة المفاوضات بشكل أوسع في الفداء الذي حدث في عهدي الواثق والمتوكل، إذ جرت المفاوضات بين الطرفين حول الفداء في عهد الواثق " وكان الرسل الذين قدموا في طلب الفداء قالوا: لا نأخذ في الفداء امرأة عجوزا ولا شيخا

١- المسعودي: المصدر السابق ، ص ١٩٠ ، ١٩١ .

٢- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ١٥٧.

٣- المسعودي: المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

٤- المسعودي: المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

٥- ابن سعد: الطبقات الكبرى ،ج ٥ ص ٣٥٣ ، ٣٥٤؛

- عبد المنعم ماجد: العصر العباسي الأول، ص ١٤٧؛

- يوسف العش: الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها، ص ٢٦٤؛

- محمد بن سعد بن شقير: فقه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، ص ٤٣٣ .

٦- عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ص ١٤٧.

كبيرا ولا صبيا فلم يزل ذلك بينهم أياما حتى رضوا عن كل نفس بنفس فوجه الواثق إلى بغداد والرقة من شري من يباع من الرقيق من مماليك فاشترى من قدر عليه فلم تتم العدة فأخرج من قصره من النساء الروميات العجائز وغيرهن حتى تمت العدة "[١]، مما يؤكد استغراق تلك المفاوضات لعدة أيام أو أكثر.

ويرجع استغراق المفاوضات لفترات طويلة بين المتفاوضين لعدة أمور منها: معرفة عدد الأسرى لدى الطرفين، ومكانة الأسير ، والمراحل العمرية(شاب أو شيخ أو طفل أو صبي) والنوع (ذكر أو أنثى)، والديانة (مسلم أو ذمي) بالإضافة إلى كيفية وطريقة مبادلة الأسرى، وكأنه يحدث أثناء المفاوضات تحقيق وتعريف بشخصية الأسير نفسه (أي ما يعرف في الوقت الحالي ببيان الحالة). ويشير الطبري إلى ذلك في الفداء الذي حدث في عهد الواثق فيقولك: " وكان السفير الموجه بين المسلمين والروم وجه ليعرف عدد المسلمين في بلد الروم فأتى ملك الروم وعرف عدتهم قبل الفداء"[٢]؛ كما ورد على لسان نصر بن الأزهر الشيعي في كيفية الفداء أنه قال:" وانقطع الأمر بيني وبينهم في الفداء على أن يعطوا جميع من عندهم وأعطي جميع من عندي"[٣].

ومن الإجراءات أيضا التي تتم قبل الفداء أنه بعد إجراء المفاوضات والاتفاق على طريقة المبادلة والأعداد التي يتم فداؤها بين الطرفين، يعقد يمين وعهد بين الطرفين على الوفاء على ما تم الاتفاق عليه ويقول في ذلك نصر بن الأزهر الشيعي الذي تولى فداء عام ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م في عهد المتوكل " وكان جميع الأسرى الذين في أيديهم أكثر من ألفين منهم عشرون امرأة معهم عشرة من الصبيان فأجابوني إلى المحالفة فاستحلفت خاله فحلف عن ميخائيل فقلت أيها الملك قد حلف لي خالك فهذه اليمين لازمة لك فقال برأسه نعم – ولم أسمعه يتكلم بكلمة منذ دخلت بلاد الروم إلى أن

١- الطبري: المصدر السابق، مجلد ٥، ص ١٩٣٢.
٢- الطبري: المصدر السابق، مجلد ٥، ص ١٩٣٢.
٣-الطبري: المصدر السابق، المجلد ٥، ص ١٩٦١.

خرجت منها، إنما يقول الترجمان وهو يسمع فيقول برأسه نعم أو لا وليس يتكلم وخاله المدبر أمره"[١].

وبعد انتهاء عملية التفاوض والاتفاق على الشروط المبرمة بين الطرفين بشأن الأسرى يقوم الخليفة أومن ينوب عنه بتجهيز أسرى الروم حتى يكون على أهبة الاستعداد إذا بدأت عملية الفداء، لذلك كان يقوم الخليفة بشراء الأسرى الروم من شتى البلاد الإسلامية؛ يؤكد ذلك رواية ابن الأثير الذي يشير فيها إلى أنه بعد الاتفاق على الفداء "اشترى الواثق من بغداد وغيرها من الروم"[٢].

هـ- مشاركة عمال الثغور في مفاوضات الفداء:

ومما تجدر الإشارة إليه أن إيفاد سفارات الفداء كان يشارك فيها عمال الثغور بصفة أساسية؛ فبعد استقراء المصادر المعاصرة والأفدية التي حدثت بين المسلمين والبيزنطيين وجد أن معظمها كان يشترك فيها عمال الثغور، بل كانوا هم الذين يتولون أمر الفداء. ففي الفداء الذي حدث في عهد هارون الرشيد عام ١٨٩هـ / ٨٠٥ م تولاه ابنه القاسم، وكان واليا على حلب وقنسرين[٣]، التي كانت تعتبر منطقة ثغور[٤]، بالإضافة إلى أنه تولى العواصم[٥] من قبل أبيه في عام ١٨٧ هـ / ٨٠٣ م[٦]، أي أنه

١- الطبري: المصدر السابق، المجلد٥، ص ١٩٦١.

٢- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٤.

٣- قنسرين: مدينة صغيرة لها سور وقلعة وسورها متصل بالمدينة وهي عامرة آهلة بالسكان، بينها وبين حلب مرحلة، انظر:

- ابن الشحنة:الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، ص ١٦٢، ١٦٣.

٤- جعل هارون الرشيد منذ عام ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م ثغري الشام والجزيرة عمالة واحدة تشتمل على جند قنسرين، انظر :

- عبد المنعم ماجد المرجع السابق ، ص ٢٨٤ .

٥- العواصم: أنشأ هارون الرشيد حصون في الجبال وجعل قصبتها مدينة أنطاكية لتكون الخط الثاني للثغور الملاصقة للروم وسماها العواصم بقصد أن يعتصم بها المسلمون من العدو إذا خرجوا من الثغر أو يجتمع فيها المتطوعة قبل الانطلاق للغزو فكان يقال قنسرين والعواصم؛ انظر:

- عبد المنعم ماجد : المرجع السابق ، ص ٢٨٤ .

٦- ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب ، ص ٣٧ ، ص ٣٨ .

كان متوليا الثغور الشامية، كما ".. حضر هذا الفداء وقام به أبو سليم فرج خادم الرشيد المتولي له بناء طرسوس"[١]. ويتضح من ذلك أن القاسم كان قائما على الثغر وأبو سليم له خبرة بالثغور. كما تولى ثابت بن نصر بن مالك أمير الثغور الشامية الفداء الثاني الذي حدث في عهد الرشيد في عام ١٩٢هـ /٨٠٨ م[٢]؛ وتولى أحمد بن سعيد بن قتيبة أمير الثغور والعواصم أمر الفداء الذي حدث في عهد الواثق عام ٢٣١هـ/٨٤٦ م[٣]؛ وصحب علي بن يحيى الأرميني- متولي أمر الثغر – السفير نصر بن الأزهر الشيعي في الفداء الذي حدث في عهد المتوكل في عام٢٤٧ هـ/ ٨٦١ م [٤].

و- تمويل الفداء:

أما عن تمويل الفداء ففي الغالب كان الخلفاء أو من ينوب عنهم هم الذين يمولونه حيث يشير ابن الأثير إلى أن الخليفة الواثق كان يشتري أسرى الروم من البلدان الإسلامية لتتم المبادلة[٥]، مما يوضح أن التمويل يتم من ديوان بيت مال الخاصة[٦]؛ وهذه المؤسسة الإدارية لم تظهر إلا في العصر العباسي الأول وبصفة

١- المسعودي: المصدر السابق ، ص ١٨٩؛
– ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٧٢٤.
٢- الطبري: المصدر السابق مجلد ٥، ص ١٧٤٦؛
– المسعودي: المصدر السابق ، ص ١٩٠ .
٣- الطبري: المصدر السابق، مجلد ٥، ١٩٣٢.
٤- الطبري:المصدر السابق، مجلد ٥ ص ١٩٦٠.
– المسعودي: المصدر السابق ، ص ١٩٢ .
٥- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٤.
٦- ديوان بيت مال الخاصة: أي بيت المال الخاص بالخليفة، وقد اعتمدت موارده على الأموال التي تأتي مما يوفره الخلفاء من أموال يتركونها لأبنائهم، ومن أموال الخراج والضياع التابعة للخليفة، انظر :
– صفاء حافظ عبد الفتاح: نظم الحكم في الدولة العباسية من أوائل القرن الثالث الهجري إلى دخول بني بويه بغداد،القاهرة ١٩٨٥ م ، ص ١٦١ ، ١٦٢؛
– ضيف الله يحيى الزهراني: النفقات وإداراتها في الدولة العباسية من سنة ١٣٢- ٣٣٤هـ / ٧٤٩- ٩٤٥م، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م ، ص ١٣٦؛
– حسام الدين السامرائي: المؤسسات الإدارية في الدولة العباسية خلال الفترة ٢٤٧ – ٣٤٣ هـ/٨٦١ – ٩٤٥م، مكة المكرمة ١٤٠٣هـ، ص ٢٤٧ .

خاصة في عهد الخليفة المهدي إذ عمل على تولية صالح صاحب المصلى القطائع في الجانب الشرقي من بغداد [١]. وكان الخلفاء يولون الولاة على بيوت أموالهم الخاصة ولا يخرج منها شيء إلا بأمر الخليفة؛ وقد اختص بيت مال الخاصة بتسليم واردات ضياع بيت مال الخليفة وأملاكه وما كان بإيداعه من الواردات الأخرى[٢]، وهو بذلك يختلف عن بيت المال الذي يمثل خزانة الدولة[٣].

وقد حدد الهلال الصابئ أوجه إنفاق الأموال التي ترد إلى بيت مال الخاصة ومنها أغراض الخليفة الخاصة، وما يأمره ليصرف فيما يحتاج إليه من نفقات الموسم ومن يخرج في الغزوات الصائفة ونفقات الأبنية والمرمات والحوادث والملمات والرسل الواردين والفداء"[٤].

ثانياً- أماكن تبادل الأسرى:

بعد أن يتم الاتفاق على شروط وطريقة تبادل الأسرى بين المسلمين والبيزنطيين يحدد المكان الذي سوف يتم فيه عملية التبادل والتي غالبا ما تكون على الأنهار التي تفصل بين حدود الدولتين أو في مناطق الثغور والحصون. وتشير المصادر المعاصرة إلى أن أشهر الأماكن التي كان يتم فيها تبادل الأسرى هي:

- **نهر اللامس**: يتضح من خلال استقراء مصادر التاريخ الإسلامي أن الفداء وتبادل الأسرى بين المسلمين والبيزنطيين كان يتم في معظم الأحوال على نهر اللامس[٥]. واللامس قرية على شاطئ البحر المتوسط من ناحية ثغر

١- الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، القاهرة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ص ١٧٦؛

- ضيف الله يحيى الزهراني: النفقات وإداراتها في الدولة العباسية، ص ١٣٥، ١٣٦ .

٢- الأربلي: خلاصة الذهب المسبوك، تصحيح: مكي السيد سالم، مكتبة المثنى بغداد د.ت، ص ١١٧.

٣- حسام الدين السامرائي: المؤسسات الإدارية في الدولة العباسية، ص ٢٤٧ .

٤- الهلال الصابئ: المصدر السابق، ص ٢٧.

٥- الطبري:المصدر السابق، مجلد ٥، ص ١٩٣١؛

- المسعودي: المصدر السابق ، ص ١٨٩ - ١٩٥؛

- ابن الأثير: المصدر السابق ج٧، ص ٢٤، ٢٥، ٧٧؛

- ياقوت الحموي: معجم البلدان، ص ١٧١.

طرسوس[١]، وهي من مقاطعة سلوقية التي تقع على ساحل بحر الشام وتضم العديد من المدن والحصون، وكان يتولاها عامل الدروب [٢]؛ ونظرا لموقعها الذي يعتبر حدا فاصلا بين الممتلكات الإسلامية والبيزنطية[٣] كان يتم الفداء على النهر القائم على تلك القرية والذي عرف بنهر اللامس[٤].

- **البَـذَنْدون**: وهي من مدن الثغور، بينها وبين طرسوس مسيرة يوم[٥]، وكان عليها نهر عرف بنهر البذندون؛ ولقد أشار إلى البَــذَنْدون الطبري وابن الأثير في الفداء الذي تم في عهد هارون الرشيد عام ١٩٢هـ/ ٨٠٨م، على يد ثابت بن نصر بن مالك [٦]؛ أما المسعودي فأشار إلى أن ذلك الفداء كان على اللامس[٧]، إلا أنه أشار إلى فداء على البذندون تم على عدة فترات في عهد الخليفة الراضي في عام ٣٢٦هـ /٩٤٧ م، وكان هذا استكمالا للفداء الذي تم على اللامس في نفس العام، حيث يشير إلى أن الروم عادوا ببقية أسرى المسلمين من اللامس إلى القسطنطينية بسبب كثرة عددهم وعدم وجود ما يقابلهم من أسرى الروم الأمر الذي جعل المسلمين يستجمعون الروم من مختلف البلدان

١- طرسوس: مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم، انظر :
- ياقوت الحموي: المصدر السابق، مجلد ٣، ج ٦، ص ٢٥٦.
٢- الإدريسي: المصدر السابق ، المجلد الثاني ، ص ٨٠٤ ؛
- ياقوت الحموي: المصدر السابق، مجلد الرابع، ج ٧، ص ١٧١؛
- فتحي عثمان: المرجع السابق، ج ٢، ص ٤١٧.
٣- السيد الباز العريني: المرجع السابق ، ص ٢٩٩.
٤- الطبري:المصدر السابق، مجلد ٥، ص ١٩٣١؛
- المسعودي: المصدر السابق ،ص ١٨٩ – ١٩٥؛
- ابن الأثير: المصدر السابق ج٧، ص ٢٤، ٢٥، ٧٧؛
- ياقوت الحموي: المصدر السابق، المجلد ٤، ج ٧ ص ١٧١.
٥- ياقوت الحموي: المصدر السابق، المجلد ١، ج ٢، ص ٢٨٧.
٦- الطبري: المصدر السابق، مجلد ٥، ص ١٧٤٦،
- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٠٨.
٧- المسعودي: المصدر السابق ، ص ١٩٠ .

الإسلامية حتى يستكمل الفداء[1]؛ أما ابن الأثير فقد أشار إلى أن هذا فداء تم في عام ٣٢٦ هـ/٩٤٧م" كان على نهر البدندون"[2].

- **حصن سنان**: وهو من الحصون التي تقع في أرض الروم، فتحها المسلمون في العصر الأموي على يد قائد حرب الروم عبدا لله بن عبد الملك بن مروان[3]، وقد حدث فيه فداء في عهد الخليفة هارون الرشيد في عام ١٨٧ هـ / ٨٠٢ م قام به القاسم بن هارون الرشيد، وجعفر بن الأشعث[4].
- **حصن كركرة**: ويقع بين سميساط وحصن زياد[5]، ذلك أن الروم أغارت على سميساط في عام ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م، فرد على تلك الغارة أمير الثغور علي بن يحيى الأرميني، وتم القبض على بطريرك الروم في كركرة، وتم فداؤه مقابل إطلاق سراح ألف أسير من المسلمين[6].

١- المسعودي: المصدر السابق ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ .
٢- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٨، ص ٣٥٢.
٣- ياقوت الحموي: المصدر السابق، مجلد ٣، ج ٥، ص ٧٧.
٤- ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٧٢٤.
٥- ياقوت الحموي: المصدر السابق، مجلد ٤، ج ٧، ص ١٣١.
٦- ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٧٥٤.

- **ثغور فلسطين:** غزة، وميماس[1]، وعسقلان[2]، وماحوزأزدود[3]، وماحوز يبنا[4]، ويافا[5]، وأرسوف[6]، حيث يشير المقدسي إلى أن الفداء كان يتم في هذه الثغور، فيقول:" تقلع إليها شلنديات الروم وشوانيهم معهم أسارى المسلمون للبيع كل ثلاثة بمائة دينار، وفي كل رباط قوم يعرفون لسانهم ويذهبون إليهم في الرسالات ويُحمل إليهم أصناف الأطعمة وقد ضج بالنفير لما تراءت مراكبهم فإن كان ليل أوقدت منارة ذلك الرباط، وإن كان نهار دخنوا ومن كل رباط إلى القصبة عدة منابر شاهقة قد رتب فيها أقوام فتوقد المنارة التي للرباط ثم التي تليها، ثم الأخرى، فلا يكون ساعة إلا وقد أنفر بالقصبة، وضرب الطبل على المنارة، ونودي إلى ذلك الرباط وخرج الناس بالسلاح والقوة، واجتمع أحداث

---

[1]- ميماس: مدينة صغيرة على البحر محصنة ذات أسوار وأبراج وحصن كانت جبهة لغزة ، وهي تابعة لها، انظر:
- المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: محمد مخزوم، بيروت ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٧م، ص ١٤٨؛
- محمد عبد الهادي شعيرة: الرملة ورباطاتها السبعة في القرن الرابع الهجري قبيل الحروب الصليبية نظام دفاعي دائري، بحث منشور بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد ١٥، القاهرة ١٩٦٩م، ص ٤٠ ، ٤١ .

[2]- عسقلان: مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين، انظر :
- ياقوت الحموي: المصدر السابق، مجلد ٣، ج ٦، ص ٣٢٧.

[3]- ماحوز أزدود: من رباطات الرملة، على نحو عشرة كيلومترات شمالي عسقلان، و ماحوز لفظ آرامي معناه الميناء، انظر:
- محمد عبد الهادي شعيرة : الرملة ورباطاتها السبعة، ص ٤٢.

[4]- ماحوز يبنا: وهي من رباطات الرملة وخطوطها الدفاعية، وكانت مدينة يبنى قريبة من الساحل وماحوزها على البحر، انظر:
- محمد عبد الهادي شعيرة : الرملة ورباطاتها السبعة ، ص ٤٢ .

[5]- يافا: مدينة على ساحل البحر المتوسط من أعمال فلسطين بين قيسارية وعكا ، انظر:
- ياقوت الحموي: المصدر السابق، مجلد ٤ ج ٨، ص ٤٩٣.

[6]- أرسوف: مدينة على ساحل البحر المتوسط بين قيسارية ويافا، انظر :
- ياقوت الحموي: المصدر السابق، مجلد ١ ، ج ١، ص١٢٦.

الرساتيق، ثم يكون الفداء فرجل يشتري وآخر يطرح درهما أو خاتما حتى يشتري ما معه "[١].

ويتضح من رواية المقدسي أن هذا نوع آخر من الفداء كان يتم في ثغور فلسطين، حيث يتم فيه مفاداة الأسرى مقابل المال، إذ كان الأسرى يعرضون للبيع الثلاثة بمائة دينار، فمن توفر لديه المال استرد أسراه؛ ومن أجل ذلك لجأ الناس كما يتضح من الرواية إلى بيع ما لديهم من أجل شراء أسراهم؛ ويبدو أن هذا الفداء كان شخصيا يقوم به أناس في تلك الأربطة أو مناطق الثغور- أي أنه يتم بين رعايا المسلمين ورعايا الروم البيزنطيين- يتولون أمر هذا الفداء، حيث تحدث فيه مفاوضات واتصالات دبلوماسية لا تتحدث فيه الدولة ممثلة في شخص الخليفة أو الإمبراطور أو من ينوب عنهما، وكأنه نوع من التجارة يتم بين تجار الروم والمسلمين في مناطق الثغور.

ويتضح مما سبق أن معظم الأفدية المنظمة التي كان يتولى أمرها السفراء من قبل الدولة لإجراء المفاوضات كانت تتم على اللامس، أما الأفدية الأخرى والتي كانت تتم بعيدا عن اللامس فمعظمها كانت لا تتحدث فيها الدولة بصفة رسمية، ولكن كانت تتم بشكل فردي، أو يتحدث فيها أناس كانوا يعيشون في الثغور لهم خبرة بالروم ولغتهم، وكانت تتم المبادلة فيها في غالب الأحيان بالمال كما حدث في ثغور فلسطين.

ومما تجدر الإشارة إليه أنه كان يحدث شراء للأسرى المسلمين في القسطنطينية نفسها، حيث كان المسلمون يذهبون إليها لفداء أسراهم بالمال، ويتضح ذلك من رواية المقدسي التي أشار فيها إلى سبب وصفه للقسطنطينية والطرق الموصلة إليها" لحاجة المسلمين إلى ذلك وقصدهم في شراء الأسارى"[٢].

---

[١]- المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٥١.

[٢]- المقدسي: المصدر السابق، ص ١٣٠.

ثالثاً- طريقة تبادل الأسرى:

توضح المصادر أن المسلمين والبيزنطيين كانوا يستعدون استعدادا كبيرا للفداء وتبادل الأسرى حيث كان يُقام احتفال كبير لتلك المناسبة قد يستمر كما أشار المسعودي حوالي أربعين يوما [١]. وكان يعين الخليفة والي الثغور ليتولى بنفسه عملية تبادل الأسرى، إذ كان يخرج في هيبة كبيرة، على عدد من البرد؛ ويشير إلى ذلك الطبري في فداء عام ٢٣١ هـ / ٨٤٦ م فيقول: " ثم عقد الواثق لأحمد بن سعيد بن سلم بن قتيبة الباهلي على الثغور وأمره بحضور الفداء فخرج على سبعة عشر من البرد"[٢]؛ مما يدل على أن البريد الحربي كان يستخدم في تلك المناسبات. كما كان يحضر الفداء أيضًا صاحب الجيش، إذ يشير اليعقوبي في الفداء الذي حدث في عهد الواثق أيضا، أن " جعفر بن أحمد الحذّاء وكان صاحب الجيش" قد شاهد ذلك الفداء[٣]. كذلك كان يحضر الفداء عدد كبير من القوات الإسلامية، ففي نفس الفداء الذي حدث عام ٢٣١هـ/ ٨٤٦ م "حضر ذلك الفداء سبعون ألف رامح، سوى من ليس معه رمح "[٤]؛ وكان يحضر الفداء أيضا قاضي القضاة أو من ينوب عنه[٥].

فضلا عن ذلك فقد كان يحضر الفداء أيضا أهالي وأُسَر الأسرى وذويهم، بل أن الناس كانوا يتطلعون إلى مشاهدة الفداء، ويشخصون من بغداد إلى موضعه القصي لمشاهدته، وكأنه بالفعل احتفال كبير يقوم به المسلمون ابتهاجا بعودة الأسرى إلى أوطانهم، ويؤكد ذلك ما ورد في فداء عام ١٨٩ هـ/ ٨٠٥م "حضر هذا الفداء وقام به أبو سليم فرج خادم الرشيد المتولي له بناء طرسوس في سنة ١٧١للهجرة وسالم البرلسي البربري مولى بني العباس في ثلاثين ألفا من المرتزقة وحضره من أهل الثغور

١- المسعودي: المصدر السابق ، ص ١٩٠.

٢- الطبري: المصدر السابق، مجلد ٥، ص١٩٣٢.

٣- اليعقوبي: المصدر السابق ، المجلد الأول ، ج٢، ص ٤٨٢ .

٤-اليعقوبي: المصدر السابق ، المجلد الأول ، ج٢، ص ٤٨٢ .

٥- الطبري: المصدر السابق، مجلد ٥، ص ١٩٥٤؛

- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٧، ص ٧٧.

وغيرهم من أهل الأمصار وغيرهم نحو من خمسمائة ألف وقيل أكثر من ذلك بأحسن ما يكون من العدد والسلاح والقوة قد أخذوا السهل والجبل وضاق بهم الفضاء"(١).

أما في فداء عام ٢٤١ هـ/ ٨٠٦ م فقد " خرج شنيف الخادم للفداء في النصف من شعبان معه مائة فارس ثلاثون من الأتراك وثلاثون من المغاربة وأربعون من فرسان الشاكرية(٢) فسأله جعفر بن عبد الواحد وهو قاضي القضاة أن يؤذن له في حضور الفداء وأن يستخلف رجلا يقوم مقامه، فأذن له وأمر له بمائة وخمسين ألف معونة وأرزاق ستين ألفا، فاستخلف ابن أبي الشوارب....وخرج قوم من أهل بغداد من أوساط الناس"(٣).

فإذا اجتمع كل هؤلاء " ضج بالنفير لما تراءت مراكبهم فإن كان ليل أوقدت منارة ذلك الرباط وإن كان نهارا دخنوا ومن كل رباط إلى القصبة عدة منابر شاهقة قد رتب فيها أقوام فتوقد المنارة التي للرباط ثم التي تليها، ثم الأخرى، فلا يكون ساعة إلا وقد أنفر بالقصبة، وضرب الطبل على المنارة، ونودي إلى ذلك الرباط وخرج الناس بالسلاح والقوة، واجتمع أحداث الرساتيق ، ثم يكون الفداء"(٤) .

ويبدأ الفداء حسب الموعد والشروط المتفق عليها مسبقا، ويجتمع الجميع على نهر اللامس المكان الذي كان يتم فيه افتداء الأسرى في معظم الأحوال، حيث كان الروم يقفون على ضفة النهر ومعهم أسرى المسلمين، ويقف المسلمون على الضفة المقابلة للنهر ومعهم أسرى الروم، وكان يصل الضفتين جسر يقطعه الأسرى عندما يتم تبادلهم. وتذكر المصادر أن الروم كانوا يطلقون أحد الأسرى، ويطلق المسلمون واحدا

١- المسعودي: المصدر السابق ، ص١٨٩ .

٢- الشاكرية: فرقة عسكرية ظهرت أيام المهدي واستفحل أمرها أيام المستعين وسمو بذلك بسبب طاعتهم وتأيدهم للخلفاء ، انظر :

= الجهشياري: نصوص ضائعة من كتاب الوزراء، جمعها وعلق عليها: ميخائيل عواد، دار الكتاب اللبناني، بيروت١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، ص ٣١؛

– ضيف الله يحيى الزهراني: النفقات وإداراتها في الدولة العباسية، ص ٢٩٢ .

٣- الطبري: المصدر السابق، ص ١٩٥٤، ١٩٥٥.

٤- المقدسي: المصدر السابق، ص ١٥١.

من أسرى الروم، فإذا وصل الأسير إلى المسلمين كبروا وإذا وصل الأسير إلى الروم صاحوا صيحة الفرح[1]. وفي رواية ذكرها الطبري أنه كان يقام جسران فيقول: " وذكر عن السندي مولى حسين الخادم أنه قال: عقد المسلمون جسرا على النهر وعقد الروم جسرا، فكنا نرسل الرومي على جسرنا ويرسلون المسلم على جسرهم فيصير هذا إلينا وذاك إليهم"[2]؛ وقيل أيضا أنه كان بالنهر مخاضة يعبر منها الأسرى من الطرفين ويشير إلى ذلك ابن الأثير فيقول "وكان النهر مخاضة تعبره الأسرى، وقيل بل كان عليه جسر"[3].

وبعد الانتهاء من تبادل الأسرى يقوم المسلمون بتأمين الروم البيزنطيين في طريق عودتهم إلى بلادهم ولا يشتبكون معهم في قتال حوالي أربعين يوما؛ ويشير إلى ذلك الطبري فيقول:" فآمنهم خاقان من ذلك وضرب بينهم وبين المسلمين أربعين يوما لا يغزون حتى يصلوا إلى بلادهم ومأمنهم"[4].

رابعاً - معاملة أسرى المسلمين في أرض الروم:

لقد كان المسلمون يعاملون أسراهم من الروم معاملة حسنة، وهذا من منطلق مبادئ العقيدة الإسلامية السمحة، التي تحس على حسن معاملة الأسير أيا كان جنسه أو دينه. وكان الخلفاء المسلمون في العصرين الأموي والعباسي يحسنون معاملة الأسرى حتى ولو غدر بهم أعداؤهم؛ فيروي البلاذري" أن الروم صالحت معاوية على أن يؤدي إليهم مالا وارتهن معاوية منهم رهنا فوضعهم ببعلبك، ثم إن الروم غدرت فلم يستحل

---

[1]- الطبري: المصدر السابق، مجلد ٥، ص ١٩٣٢؛
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، ج ٧، ص ٢٤ ؛
- ابن العبري: المصدر السابق، ص ١٢٤.

[2]- الطبري: المصدر السابق، مجلد ٥، ص ١٩٣٢.

[3]- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٤، ٢٥.

[4]- الطبري: المصدر السابق، مجلد ٥، ص ١٩٣٢.

معاوية والمسلمون قتل من في أيديهم من رهنهم وخلّوا سبيلهم وقالوا: وفاء بغدر خير من غدر بغدر- وهو قول العلماء الأوزاعي وغيره "[1].

أما عن معاملة أسرى المسلمين في أرض الروم فقد كانت في معظم الأحوال ترتبط بمدى قوة وضعف الدولة الإسلامية، فإذا كانت الدولة قوية ولها هيبتها عُومل أسرى المسلمين لدى الروم معاملة حسنة، يؤكد ذلك المقدسي الذي يذكر في وصف القسطنطينية حال أسرى المسلمين بها فيقول:"إن للمسلمين بها دارا يجتمعون فيها ويظهرون الإسلام بها"[2]؛ ثم يُرجع ذلك إلى الأمويين في وقت قوتهم فيقول:" أعلم أن مسلمة بن عبد الملك لما غزا بلد الروم ودخل هذا المصر، شرط على كلب الروم بناء دار بإزاء قصره في الميدان ينزلها الوجوه والأشراف إذا أُسروا ليكونوا تحت كنفه، وتعاهده، فأجابه إلى ذلك وبنى دار البلاط- والبلاط خلف الميدان يصنع به الديباج الملكي ..... ولا يسكن دار البلاط من المسلمين إلا وجيه في إجرائه وتعاهد وتنزه، وسائر الأسارى من عامة المسلمين يستعبدون ويستعملون في الصنائع- فالحازم الذي إذا سئل عن صنعته لم يقر بها، وربما اتجر الأسارى بينهم وانتفعوا، ولا يكرهون أحد على أكل لحم الخنزير ولا يثقبون أنفا ولا يشقون لسانا. ومن دار الكلب إلى دار البلاط حبل ممدود فيه صورة فرس من نحاس، ولهم أوقات يجتمعون فيها للعب.. .. فإذا أرادوا أن يتفاعلوا في لعبهم صاروا حزبين.... فإن سبقت خيل حزب الكلب قالوا ستكون الغلبة للروم، وإن غلبت خيل حزب الوزير قالوا ستكون الغلبة للمسلمين، فيخلعون عليهم ويصلونهم لكون الغلبة لهم"[3].

وتوضح هذه الرواية أن الروم البيزنطيين كانوا يعاملون أسرى المسلمين معاملة حسنة سواء منهم الوجهاء أو العامة، بل أن العامة كانت تتاح لهم الفرصة للعمل بالتجارة فيما بينهم، بل أن الروم كانوا يخلعون عليهم ويصلونهم، وكما يتضح من الرواية أيضا أن الذي ضمن للأسرى المسلمين تلك المعاملة الحسنة قوة الدولة

---

[1]- البلاذري: فتوح البلدان ، ص١٦٣ .

[2]- المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٣٠.

[3]- المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٣٠، ١٣١.

الإسلامية خاصة في العصر الأموي، وذلك منذ أن شرط مسلمة بن عبد الملك أكبر قادة حرب الروم في العصر الأموي[1] على الإمبراطور البيزنطي أن يوفر للمسلمين تلك الحياة الكريمة كما يتضح من الرواية.

وفي غالب الأحوال استمرت المعاملة الحسنة من البيزنطيين لأسرى المسلمين طوال فترة قوة الدولة الإسلامية خلال العصرين الأموي والعباسي خاصة وأن المقدسي يتحدث في تلك الرواية عن حال القسطنطينية في العصرين معا. أما في حال ضعف دولة الخلافة، فقد ظهر بشكل واضح سوء معاملة البيزنطيين لأسرى المسلمين خاصة في عهد الخليفة المتوكل إذ ضعفت الدولة الإسلامية وساءت أحوالها بسبب نفوذ الأتراك وسيطرتهم على دولة الخلافة[2]، لذلك كثرت الروايات عن سوء معاملة أسرى المسلمين لدى الروم، وأن الروم البيزنطيين كانوا يجبرونهم على ترك الإسلام وينصرونهم، وإلا تعرضوا للقتل، وقتل في تلك الفترة أعداد كبيرة من أسرى المسلمين ممن رفض التنصر[3] مما اضطر الخليفة المتوكل إلى فداء الأسرى في عام ٢٤١هـ/٨٠٦ م، تلاه فداء آخر في عام ٢٤٧هـ/٨٦١ م لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الأسرى.

١- عن دور مسلمة بن عبد الملك في الجهاد ضد البيزنطيين انظر:
- محمود شيت خطاب: قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، بيروت - لبنان ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨م، ص ٢٢١ - ٢٦٢.

٢- عن تفوق نفوذ الأتراك في عهد الخليفة المتوكل انظر :
- حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص٢٦٠- ٢٦٥ .

٣- الطبري: المصدر السابق، مجلد ٥، ص ١٩٥٤؛
- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٧، ص ٧٦، ٧٧.

كما ازداد وضع أسرى المسلمين سوءا في عهد الخليفة المقتدر[1]، إذ أساء الروم معاملتهم، يؤكد ذلك ما ورد على لسان علي بن عيسى وزير الخليفة المقتدر فيقول:" كتب إليّ عاملنا على الثغر بأن أسارى المسلمين كانوا في بلد الروم على حالِ رَفَـــاهة وصيانة إلى أن ولّـــى مُـــلك الروم أنفا حدثان منهم، فعسفا وعاقباهم وأجاعهم وأعرياهم وطلباهم بالتنصر وأنهم في بلاء وجَهْد وهذا أمر لا حيلة فيه ولا مقتدر على دفع ما أظل هؤلاء المساكين"[2]، ولاشك أن هذه الرواية توضح حال أسرى المسلمين في ظل ضعف الدولة الإسلامية على عهد الخليفة المقتدر، كما تعطي إشارة إلى حالهم قبل ذلك أي في وقت قوتها.

وتجدر الإشارة هنا إلى موقف الوزير علي بن عيسى من الإساءة إلى الأسرى المسلمين، حيث فكّــر في شن حملة على الروم لــتأديبهم، ولكنه أدرك أن وضع الخلافة وميزانيتها لا يتحمل مثل ذلك؛ فظل يفكّــر في ذلك الأمر حتى أشار عليه القاضي مكرم بن بكر بن علي بن يحيى- وكان من المقربين من الوزير بل ومن كبيري مستشاريه، فأشار عليه بأن يرسل في أمر الأسرى إلى بطريرك أنطاكية والجاثليق الرومي ببيت المقدس "وأمرهما ينفذ على ملك الروم، لأن أمورهم لا تتم إلا بهما، والطاعة لا تلزم جمهور رعيتهم إلا بقولهما، وربما حَرَما الواحد منهم فيحرم عندهم، والرجلان في ذمتنا وتحت سلطاننا، فيأمر الوزير بمكاتبة عاملي البلدين بإحضارهما وإعلامهما ما يجري على الأسارى في بلد الروم وإنه مما لم تجر به عادة،

---

[1]- اضطربت أحوال الدولة الإسلامية في عهد الخليفة المقتدر، وانتشرت الفتن في الداخل والخارج وثار عليه رجال الجيش لما رأوا من تدخل الحاشية والخدم في شؤون الحكم، وضياع الأموال، وفساد الأحوال، فعمت الفوضى، وضاعت ممتلكات الدولة في الخارج، واستطاع البيزنطيون أن يشنوا غاراتهم المتصلة على الحدود والثغور الإسلامية، انظر:

- حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص ٢٨٢ - ٢٨٤.

[2]- الهلال الصابئ: المصدر السابق، ص ٣٥٤.

المصادر والمراجع العربية

أولاً: القرآن الكريم

ثانيا: المصادر العربية

١-ابن أبي شيبة (الإمام عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي العبسي)، ت: ٢٣٤هـ / ٨٤٨ م:
" الكتاب المصنف في الحديث والآثار"، تحقيق: عامر العمري الأعظمي، بومباي، الهند د.ت.

٢- ابن الأثير (عز الدين على بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بالجزري)، ت:٦٣٠هـ /١٢٣٢م:
" الكامل في التاريخ"، ١٢ جزءاً، بيروت ١٩٦٥ ،١٩٦٦، ١٩٧٩، ١٩٨٣م.

٣- ابن تيمية (شيخ الإسلام أحمد بن تيمية)، ت:٦٨٢ هـ/١٢٨٣م:
" مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية"، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي الحنبلي، الرياض ١٣٨٣هـ.

٤- ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي)، ت: ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠م:
" تاريخ عمر بن الخطاب"، القاهرة ، د.ت؛
" سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد"، تحقيق: نعيم زرزور، بيروت ١٤٠٤ هـ.

٥- ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي)، ت:٣٦٧هـ / ٩٨٧م:
" كتاب صورة الأرض"، ليدن ، مطبعة بريل ١٩٣٨م.

٦- ابن خلدون(عبد الرحمن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي)، ت: ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥م:
" تاريخ بن خلدون"، تحقيق: صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، عمان- الأردن، الرياض- السعودية، د.ت.

٧- ابن خياط (أبو عمرو خليفة بن خياط بن أبي هبيرة العصفري)، ت: ٢٤٠ هـ/ ٨٥٤ م:
" تاريخ خليفة بن خياط"، تحقيق: أكرم ضياء العمري، دار القلم، دمشق وبيروت،١٣٩٧ هـ/١٩٧٧م.

٨- ابن رضوان(عبد الله بن يوسف):
"الشهب اللامعة في السياسة النافعة"، تحقيق: سليمان الرفاعي، دار المدار الإسلامية، ط ١، د.ت.

٩- ابن زيد (أبو عبد الله محمد):
" تاريخ الخلفاء- رواية أبي بكر السدوسي"، تحقيق: مصيغ الحافظ، مؤسسة الرسالة، بيروت د. ت.

١٠- ابن سعد (محمد بن منيع الهاشمي)، ت: ٢٣٠هـ /٨٤٤م :
" الطبقات الكبرى"، تحقيق: إحسان عباس، بيروت ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

١١- ابن الشحنة (أبو الفضل محمد بن الشحنة الحلبي الحنفي)، ت: ٨٩٠ هـ /١٤٨٥م:
" الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب"، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دمشق ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م.

١٢- ابن عبد البر(الحافظ يوسف بن عبد البر النمري)، ت: ٤٦٣ هـ/ ١٠٧١م:
" الدرر في اختصار المغازي والسير"، تحقيق: شوقي ضيف ، القاهرة ١٤٠٣ هـ.

١٣- ابن عبد الحق البغدادي(صفي الدين عبد المؤمن)، ت: ٧٣٩هـ /١٣٣٨م:
" مراصد الإطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع"، تحقيق: علي محمد البجاوي، القاهرة ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.

١٤- ابن عبد الحكم (أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم)، ت: ٢١٤هـ/٨٢٩ م:
" سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه مالك بن أنس وأصحابه"، تحقيق: أحمد عبيد، مطبعة وهبة، القاهرة ١٣٧٣هـ.

١٥- ابن العبري (العلامة غريغوريوس أبو الفرج جمال الدين الملطى)، ت: ٦٨٥هـ/١٢٨٦م:
" تاريخ مختصر الدول"، تحقيق: خليل المنصور، بيروت ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧م.

١٦- ابن العديم (الصاحب كمال الدين أبو القاسم عمر بن هبة الله بن العديم)، ت:٦٦٠هـ/١٢٦١م:
" زبدة الحلب من تاريخ حلب"، تحقيق: خليل المنصور، بيروت ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦م.

١٧- ابن قدامة (عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة)، ت: ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣م:
" المغني"، الرياض د. ت ،ج ٨، فصل: ويجب فداء الأسرى؛

١٨- ابن كثير(عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي)، ت:٧٧٤هـ /١٣٧٢م:
" البداية والنهاية"، القاهرة ١٤١٤هـ.

١٩- ابن النحاس:
"مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق"، باب فكاك أسرى المسلمين وفدائهم- نقلا عن يوسف القرضاوي،أحكام الأسرى في الإسلام،إسلام أون لاين نت، ٥/١٣ / ٢٠٠٤، الصفحة الرئيسية، الملف الشرعي.

٢٠- ابن الوردي(سراج الدين أبو حفص عمر بن الوردي)، ت: ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م:
" خريدة العجائب وفريدة الغرائب"، القاهرة، د.ت.

٢١-الإدريسي(أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحموديني الحسيني)، من علماء القرن السادس الهجري:
" كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق"، القاهرة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

٢٢- الأربلي(عبد الرحمن سنبط قنيتو)، ت: ٧١٧ هـ / ١٣١٨م:
"خلاصة الذهب المسبوك"، تصحيح مكي السيد سالم، مكتبة المثنى بغداد، د.ت.

٢٣- الأزدي (علي بن ظافر بن حسين الأزدي)، ت: ٦١٣ هـ/ ١٢١٦م:
" أخبار الدول المنقطعة"، تحقيق: علي عمر، القاهرة ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠١م.

٢٤- الأصبهاني(أبو نعيم أحمد بن عبد الله)، ت: ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م:
" حلية الأولياء وطبقات الأصفياء"، بيروت د.ت.

٢٥- البخاري(أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم)، ت: ٢٥٦ هـ:
" صحيح البخاري"، دار المنار، القاهرة ١٤٢٢هـ /٢٠٠١م.

٢٦- البلاذري(أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر)، ت:٢٧١هـ/ ٨٨٤ م:
" فتوح البلدان"، تحقيق: رضوان محمد رضوان، بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٢٧- البلوي(أبومحمد عبد الله بن محمد المديني)،ت: ٣٣٠ هـ/٩٤١ م.
" سيرة أحمد بن طولون"، المكتبة العربية بدمشق، د.ت.

٢٨- الجهشياري (أبو عبدالله محمد بن عبدوس بن عبد الله الجهشياري)، ت :٣٣١ هـ/٨٤٠م:
" الوزراء والكتاب"، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، القاهرة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١م.
" نصوص ضائعة من كتاب الوزراء"، جمعها وعلق عليها ميخائيل عواد، دار الكتاب اللبناني، بيروت١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤ م.

٢٩- سعيد بن منصور:
" سنن سعيد بن منصور"، الحديث رقم(٢٨٢٢).

٣٠- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري)، ت: ٣١٠ هـ / ٩٢٢م.
" تاريخ الأمم والملوك"، تحقيق: نواف الجراح، بيروت ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٥ م.

٣١- الماوردي(أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي)، ت: ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م:
" الأحكام السلطانية"، بيروت ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م.

٣٢- المسعودي(أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي)، ت: ٣٤٦ هـ/ ٩٥٧م:
" التنبيه والإشراف"، ليدن ١٨٩٣م.

٣٣- المقدسي(أبو عبد الله محمد بن أحمد بن البناء البشاري المقدسي)، ت: ٣٨٨ هـ/ ٩٩٧م:
" أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، تحقيق: محمد مخزوم، بيروت ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧م.

٣٤- الهلال الصابئ(أبو الحسن الهلال بن المحسن الصابئ)، ت: ٤٤٨ هـ/ ١٠٥٦م:
" تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء"، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الناشر مكتبة الأعيان د.ت.

٣٥- ياقوت الحموي(شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي الرومي)، ت: ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م:
" معجم البلدان"، بيروت ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م.

٣٦- اليعقوبي(أحمد بن أبي يعقوب بن واضح)، توفي بعد سنة ٢٩٢هـ:
" تاريخ اليعقوبي"، بيروت ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠م.

ثالثا: المراجع العربية والمترجمة

١-إبراهيم أحمد العدوي:
" الأمويون والبيزنطيون- البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية" القاهرة، ١٩٥٣م.

٢- أسد رستم:
" الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب"، دار المكشوف، بيروت ١٩٥٥، ١٩٥٦م.

٣- جوزيف نسيم يوسف:
" تاريخ الدولة البيزنطية"، الإسكندرية ١٩٨٤م.

٤- حسام الدين السامرائي:
"المؤسسات الإدارية في الدولة العباسية خلال الفترة ٢٤٧-٣٤٣هـ/٨٦١-٩٤٥م"، مكة المكرمة ١٤٠٣هـ.

٥- حسن إبراهيم حسن:
" تاريخ الإسلام السياسي"، القاهرة ١٩٥٣، ١٩٥٥م.

٦- حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف:
" العالم الإسلامي في العصر العباسي"، القاهرة ١٩٩٥م.

٧- حسنين محمد ربيع:
" دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية"، القاهرة ١٩٩٥م.

٨- " دائرة المعارف الإسلامية": أصدرها بالإنجليزية والفرنسية والألمانية كبار المستشرقين في العالم تحت إشراف الاتحاد الدولي للمجامع العلمية، ترجمة: إبراهيم زكي خورشيد وأحمد الشنتناوي وعبد الحميد يونس،القاهرة ١٩٣٣م.

٩- رعد محمود البرهاوي:
" العيون والجواسيس في الدولة الإسلامية منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى نهاية العصر الأموي"، إربد، الأردن ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥م .

١٠- ستيفن رنسيمان:
" الحضارة البيزنطية"، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة ١٩٩٤م.

١١- السيد الباز العريني:
" الدولة البيزنطية ٣٢٣- ١٠٨١م"، دار النهضة العربية ، بيروت د.ت، القاهرة ١٩٦٥م.

١٢- صفاء حافظ عبد الفتاح: